

الإسلام دين الحياة
الكتاب الخامس

دكتور محمد عمارة

أزمة الفكر الإسلامي المعاصر



من الشرق الأوسط للنشر



الإسلام دين الحياة
الكتاب الخامس

دكتور محمد عمارة

أزمة الفكر الإسلامي المعاصر

دار الشرق الأوسط للنشر

تمهيد

ولنن نتحدث عن « أزمة الفكر » - في المحيط الاسلامى -
نستطيع ، بل يجب أن نستحضر النبوءة النبوية التى تحدث فيها رسول
الله صلى عليه وسلم ، عن موقف الطوائف والأجيال والتيارات
وأصناف الناس من فكر الإسلام وعلمه ومنهجه .. ففى هذا
الاستحضار - فضلا عن العظة والاعتبار - قيس من نور النبوة
يضىء طريق الخروج من هذه « الأزمة » التى تمسك بخناق العقل
المسلم والأمة المسلمة فى هذا العصر الذى نعيش فيه ..

خفى الحديث الذى يرويه أبو موسى الأشعرى - رضى الله عنه
- يقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إن مثل مابعثنى الله ،
عز وجل ، به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت
مته :

- طائفة قبلت ، فأثبتت الكلاً والعُشب الكثير .
- وكانت منها : أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله ، عز وجل ،
بها ناسا ، فشربوا فرعوا وسقوا وزرعوا وأسقوا .
- وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت
كلأ .

فذلك مثل :

من فقه فى دين الله ، عز وجل ، ونفعه الله ، عز وجل ، بما
(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

بمشي به ، ونفع به ، فعَلِمَ وعَلِمَ .

ومثل : من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله ، عز وجل ، الذى « أُرْسِلْتُ به » (١)

لقد جاء الاسلام باعتباره الحلقة الخاتمة فى سلسلة الرسائل السماوية التى كانت حلقات تجديد للدين الالهى الواحد ، وللشرائع الإلهية المتعددة بتعدد وتطور واختلاف أم الرسائل .. ولقد كان الجهاد الأول والأكبر الذى قام المسلمون الأوائل بفريضته ، هو الوعى بهدى الله وعلم النبوة ومنهاج هذا الدين ، الأمر الذى أثمر الأمة التى قبلت الاسلام وأقبلت عليه ، فتوحدت به ومعه وفيه ، فكان الوعى بالذات الإسلامية ، والانتماء الى خصائصها ، والانخراط فى موكبها ، والجهاد فى سبيل « التقنية الإسلامية » ، عندما تجسدت « العقيدة » نموذجا حيا فى أمة المسلمين وفى دار الاسلام ..

فالعقل الذى أصبح إسلاميا - بعد أن كان جاهليا - جاهلية العرب أو الفرس أو الروم - قد قرأ وتدبر ووعى « كتاب الوحي » و « كتاب الكون » ، فأبدع علوم الحضارة وأقام صروح المدنية ، بعد أن أضاف إلى إبداعه الموارث الفكرية القديمة ، التى عرضها على معايير الاسلام ، فاستصفها وصفاها من غيبش الجاهلية ووثنتها وجورها وزينها عن سبيل الله .

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

ذلك مثل الطائفة التي قبلت هدى الله وعلم النبوة فانتفعت به
وَنَفَعَتْ - عَلِمَتْ وَعَلِمَتْ - كما تقبل الأرض الطيبة الغيث ، فتنبت
الكأ والعشب الكثير 1 ..

لقد واجهوا طواغيت عصرهم ، وقواه الكبرى المتحكمة
والمهيمنة .. وواجهوا مواريث الأمم السابقة - بما فيها من صلاح
وفساد - بوعى لا غش فيه ، بطبيعة وتميز وامتنياز الرسالة التي
يحملون ، وباتناء ، لا شرك فيه ، إلى هذا الدين ، وبشوق إلى
الشهادة في سبيل إقامة الاسلام وتجسيد القرآن ، حياة تسعى وتنمو
وتمتد وتتطور على هذه الأرض ، تحقيقا للخلافة التي أرادها الله لهذا
الانسان في هذا الوجود ..

وإذا كان توالى السنين ، ومعها طوارئ الأمراض والعوارض ،
هو مما يصيب الصحة الجسدية بالوهن والعلل ، فإن هذه السنة
تسحب أيضا على الأنساق الفكرية ، يصيبها توالى السنين والقرون ،
والعلل الذاتية والوافدة بالغش الذي يحجب صفاءها ويقل من عزمها
ويقلل من فاعليتها ، فإذا لم يتداركها المجددون بالتجديد والجهادون
بالجهاد الذي يجسدها نموذجاً حياً معاشاً ، طويت صفحتها الحية ،
وتحولت إلى متحف التاريخ 1 ..

ولما كانت خلافة الإنسان عن الله هي إرادة إلهية نافذة ، كانت
رعايته ، سبحانه وتعالى ، إحدى ألطافه ونعمه ، سبحانه وتعالى ،
على هذا الانسان .. فكان تعاقب الرسائل السماوية تجديدا للنسق

الدينى فى فكر هذا الانسان .. وعندما بلغ هذا الانسان مرحلة
 الرشد ، وشاء الله ختم طور النبوة والرسالة والوحى بمحمد ، صلى
 الله عليه وسلم ، وبالقراآن الكريم ، استمر التجديد سنة من سنن
 الإسلام ، لينفى به المجددون عن هذا الدين طوارىء القرون وعللها ،
 وأمراض الغلو ، إفراطا وتفریطا ، فالتجديد ، فى هذه الرسالة
 الخاتمة ، هو القائم بمهمة الرسالات المتوالية فى تاريخ النبوة القديم ،
 ولذلك كان علماء هذه الأمة ، المجددون لدينها ، مثلهم فى هذا
 الميدان ، كمثل أنبياء بنى إسرائيل فى التاريخ الدينى القديم .. إنهم
 ورثة الأنبياء .. يجدد العدول منهم هذا الدين ، عندما ينفون عنه
 الزوائد ويعيدون إليه التواقص ، ويكشفون عن طاقاته وإمكاناته
 لتفعل فعلها فى هداية الإنسان .. وصدق رسول الله ، صلى الله
 عليه وسلم ، إذ يقول : « يعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة
 سنة من يجدد لها دينها » . (١) |

واليوم .. لانغالى إذا قلنا إن إجماعا يكاد أن يتعقد على أن الفكر
 الإسلامى يعيش فى أزمة ، وعلى أن هذه الأزمة الفكرية قد أوقعت
 أمة هذا الفكر فى مأزق حضارى .. فأهل الفكر — بتياراتهم المختلفة
 — يسلمون بذلك ، مع اختلافهم فى تحديد أسباب هذه الأزمة ، وفى

(١) رواه ابو داود .

تعيين سبل الخروج منها .. وواقع الأمة يشهد على ذلك ، حتى لدى الذين لا يتخذون من الفكر صناعة يتخصصون ويبرعون فيها ..

لقد تحققت نبوة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تلك التي صاغها في حديثه الذي يقول فيه : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبا ، فطوبى للغرباء »^(١)

بل إن هذه الغربية الحالية ، هي — حتى الآن — متميزة عن الغربية الأولى ، لأن « الغرباء » الذين حملوا الاسلام في عهده الأول قد امتلكوا — على النحو الذي أشرنا اليه — المؤهلات التي جعلتهم يواجهون به قوى ذلك التاريخ وطواغيته ومواريفه ، ويتصرون .. « أما غرباء ، هذا العصر ، من الذين تحققت فيهم صفات الطائفة التي تقبلت الهدى الالهي والعلم النبوي والمنهج الاسلامي ، فعلمته وعلمته ، وأنفعت به ونفعت ، فإنهم من القلة العددية ، وتبخر الجهود والطاقات ، بحيث لا يكاد يدرك الأكثرون لهم فعلا ولا تأثيرا ..

صحيح أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد تعهد بحفظ هذا الدين ، عندما تعهد بحفظ كتابه المبين [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون]^(٢) .. لكن الأكثرية من أبناء الأمة قد غدا حفظهم لهذا الدين أشبه مايكون بحفظ الأرض الجذباء والصخرية للماء ، حفظ لا يبدد الحركة ، لكنه لا ينفع بها ، فضلا عن أن ينفع بها ! ..

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه والدارمي والامام احمد .

(٢) الحجر : ٩

حفظ لا يثبت الكلاً والعشب الكثير .. وإنما هو إمساك للماء ، ماء الغيث ، في انتظار من يتقبله ، فينتفع به وينفع ، صنعا للجديد بالتجديد .. ذلك هو حال أهل الجمود على الموروث ، بالنسبة الى « الغرباء » ، أهل التجديد ! ..

أما الطائفة الثالثة من طوائف هذه الأمة - التي أشارت إليها نبوءة الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. فهي تلك التي انتزعها طواغيت العصر - من القوى الكبرى - بالغزو الفكري والاستلاب الحضارى .. لقد انفصلت عن الوعي بالإسلام والانحياز لمنهجه والالتزام برؤيته والجهاد في سبيله ، فغدت ، بالنسبة لتراثه ، كالقيعان « التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً » ! .. إنهم يفرون من الالتزام الاسلامى ، فلم يعودوا يرفعون به رأسا ، ولا يقلون هدى الله الذى جاء به رسوله ، عليه الصلاة والسلام ! ..

لهذا كان عجزنا أمام طواغيت العصر عجزا مخجلا .. فلم نتنصر كما انتصر الأولون .. ولهذا كان فشطنا في الاستفادة بموارث الآخرين فشلا ذريعا ، فلم نستفد منها ، ونتفوق عليها كما صنع الأولون .. إن حفظنا لتراث الإسلام - في أغلبية الأعم - هو حفظ « الأراضى الأجاذب » التي لم تضيع الماء ، لكنها لم تنتفع به ، فقلد وتنبت وتبدع الجديد .. وما لم تتغير موازين القوى على خارطة الحياة الفكرية لأمتنا الإسلامية ، فيصبح التأثير الأفعال والأعمق هو لتيار الإلحاء الإسلامى والتجديد الحضارى ، فستظل غربة الاسلام قائمة حتى في

ديار أمته ، وسيظل عجز هذه الأمة عن تحقيق المقاصد الحقيقية لخلافة
الإنسان عن الله : إعمار هذا الكون على النحو الذى تكون فيه كلمة
الله هى العليا فى هذا العمران .. سيظل هذا العجز عن تحقيق هذه
المقاصد قائما ! ..

ثم .. إن هذه الأزمة الفكرية ، التى قادت وتقود الأمة إلى هذا
المأزق الحضارى .. ليست خاصة تنفرد بها أمة الإسلام .. فحتى
طواغيت اليوم ، وقواه الكبرى والمهيمنة ، يعانون هم الآخرون من
أزمة فكرية ، ومن مأزق حضارى .. كما كان حال أسلافهم الذين
واجههم المسلمون الأولون ..

● إننا نعانى من « انعدام » وضوح الرؤية ، ومن فقدان الاتجاه ..
وهم يعانون من « قلة » وضوح الرؤية ، ومن فقدان الاتجاه
الصحيح ..

● ونحن نعانى من « الضعف » الذى يجعل كثرتنا غثاء كغشاء
السيل ، لا فعل لها ولا تأثير .. وهم يعانون من « تضخم » « القوة
المتوحشة » ، التى تهدد « الوجود » بـ « الفناء » ! ..

● ونحن نعانى من « فقر الإبداع » ، لافتقارنا إلى الإحساس
بخصوصيتنا ، ولانعدام الإلتناء إلى مشروعنا الحضارى ، الذى يفجر
فينا طاقات الإبداع .. وهم يعانون من « خلل توازن ثمرات

الإبداع » ، ففى ميادين القوة والوفرة المادية ، قفزت وتقفز حضارتهم قفزات عملاقة ، على حين أصابها ويصيبها الفقر الشديد فى غير هذين الميدانين ، فافتقد إنسانها التوازن الحضارى ، والاتساق الداخلى ، والاطمئنان الآمل عندما انعدمت فى نسقه الفكرى حكمة الحياة ، وغاية الوجود ، وإنسانية القوة والوفرة المادية .. إنه الإبداع الأعرج ، القائم على ساق واحدة ، الذى حقق لإنسان الحضارة الغربية : قوة الوحوش الكاسرة ، ويشبع من يأكل فى سبعة أمعاء ، مع أقصى درجات القلق والعشية وانعدام المعنى الإنسانى للحياة ! ..

إنهم يألمون كما نألم .. لكن مع اختلاف الأسباب .. الأمر الذى يجعل من خروج الفكر الإسلامى من أزمتة ، وانعتاق الأمة الإسلامية من مأزقها الحضارى ، الحل لمشكلتنا نحن وحدنا وإنما يجعل منه إسهاما مطلوبوا لترشيد الخيارات الحضارية الأخرى ، وخاصة الخيار الغربى ... فالإسلام الناهض المتجدد ، هو المرشح اليوم لممارسة المهمة التى نهض بها عندما ظهر ... مهمة الإحياء والترشيد والتجديد حتى فى إطار القوى التى ناصبته وتناصبه العداء ! .. مهمة الشهود الحضارى الفاعل فى « متدى الحضارات » الإنسانية ! ..

لذلك « لاغربة فى أن تنصدر مشكلة « أزمة الفكر الإسلامى » قائمة المشاكل التى تواجه العقل المسلم فى هذا العصر الذى نعيش فيه .. ولاغربة اذا نحن دعونا « أهل الذكر » إلى الاهتمام بها أيمًا أهتمام ، وإلى إدارة أعمق وأوسع حوارات حول ماها وفيها من أسباب وأعراض وسمات .

وإذا كان لهذه الصفحات أن تلتقط من قضايا هذا المبحث -
مبحث أزمة الفكر الاسلامي المعاصر نماذج من المشكلات المثارة في
المباحث التي تعرض لهذه القضية .. فإن هناك - على سبيل المثال -
قضايا ومشكلات تواجه العقل المسلم ، ويعاني منها ، عندما يطرق
مباحث هذا الميدان .. هناك مثلاً :

- ١ - قضية : العقل ماهو ؟ .. وما الموقف منه ؟ .. وضرورة
تحريره .. لكن ، من ماذا ؟ ! ..
- ٢ - وقضية : علاقة الجديد والتجديد بالتراث ؟ ..
- ٣ - وقضية : الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة
والمعاصرة ؟ ..
- ٤ - وقضية : الموقف من « الآخر الحضاري » - والحضارة الغربية
على وجه الخصوص ؟ ..
- ٥ - وقضية : « انقسام العقل المسلم » حول مرجعية مشروعه
الحضاري ؟ ..

تلك نماذج لأبرز قضايا أزمة الفكر الاسلامي المعاصر .. والتي
تطمح هذه الصفحات أن تلقى عليها بعض الأضواء .

العقل .. وتحريره

ماذا يعنى ؟ .. وماهية التحرير ؟؟

إن أولى القضايا المشككة ، فى أزمة الفكر الاسلامى المعاصر ، هى قضية « العقل » .. والموقف منه كأداة للنظر والبرهنة والاستدلال ... والموقف من الشعارات المطروحة حول ضرورة تحرير العقل المسلم من القيود التى تكبله .. ماهى هذه القيود ؟ .. وهل مايعده غيرنا قيودا على النظر العقلى هى كذلك فى النظرة الاسلامية ؟ ..

إن العقل والعقلانية ، والترعة العقلية — فى المنظور الاسلامى — ليس جوهرها مستقلا ، ومناقضا لغيره من سبل النظر وتحصيل المعارف وأدوات الإدراك .. فإذا كان المنهج العقلى ، والفكر ذو النزعة العملية ، فى المصطلحات السائدة بالفكر الغربى يعنى التميز والاستقلال ، بل والمقابلة والتناقض مع المناهج والنزعات الوجدانية والحدسية والنقلية ، فليس كذلك الحال فى منظور الرؤية الاسلامية لعلاقة العقل والعقلانية بمناهج النظر والإدراك الأخرى ..

فالعقل — فى مصطلح العربية ومفهوم الاسلام — ليس « عضوا » ، وإنما هو « فعل التعقل » .. وبه وبالقلب والنهى واللُب ، وبالنظر والتدبر والتفكير والفقه كان التعبير القرآنى عن سبيل هذا المنهج من مناهج النظر وعن مضمون هذا المصطلح .. وفعل

التعقل إنما يتم من إنسان يمتلك سبلا أخرى للنظر والإدراك ..
موضوع النظر والإدراك ، وعواملها من الكثرة والتعدد إلى الحد
الذى يستحيل تحصيل معارفها ، أو الممكن والمتاح من معارفها ،
بسييل واحد من سبل النظر والإدراك هذه .. فالقصور شديد في
حصول كل سبيل إذا هو انفراد وانقطعت علاقته بالسبل الأخرى ،
والأفق أوسع والمحصل أغنى إذا تعاونت سبل النظر والإدراك في
تحصيل المعرفة من مصادرها وعواملها المتعددة المختلفة ..

كذلك ، فإن النقل - وهو الوحي - في المنظور الإسلامى ، ليس
مقابلا للعقل والعقلانية ، بل إنه ثمرة للعقلانية .. فحجية النقل مرتبة
على حجية الرسول الذى بلغه .. وحجية الرسول المبلغ مرتبة على
الايان بالله الذى أرسل الرسول بالوحي المنقول .. وسبيل هذا الايمان
هو النظر العقلى فى كتاب الكون المصنوع على نحو لانهاى من الإبداع
والإحكام فى الصنعة والتقدير والرعاية والتدبير .. فكأنما كان
التصديق بهذا النقل - كتاب الوحي - هو ثمرة عقلية للنظر فى كتاب
الكون - استدلالا بالمصنوع البديع على الصانع المبدع « الأمر الذى
جعل ويجعل التزامل حتما والاشتراك ضرورة بين « كتاب الوحي »
و « كتاب الكون » وبين العقل ، كأداة للنظر فيهما معا ، متعاونتا فى
ذلك ومستعينا بكل أدوات النظر الأخرى ..

ذلك هو العقل ، وتلك هى العقلانية ، والنزعة العقلية فى منهج
الاسلام .. فليس هناك تقابل بين العقل والنقل ، ولا بين الوحي

والكون .. وليس هناك استقلال للنظر العقلي عن غيره من سبل
النظر والإدراك .. وإنما تتفاوت المناهج وأصحابها في المقام والأهمية
التي تعطى لكل سبل من سبل النظر في عملية البحث عن الحقيقة ،
وهو تفاوت يجب أن تحكمه طبيعة البحث وميدان النظر وحقل
التفكير .

وإذا كان هذا هو مقام العقل ومكانته بين سبل النظر في الروحي
والدين .. فإن الدين الإسلامي غير مقطوع الصلة بالعقلانية ، بل
إنه موضوع من موضوعات المباحث العقلية وميدان من ميادين
النزعة العقلية .. لأنه حكم على العقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه
من عوالم الغيب والسمعيات ، وميادين الذوق والوجدانيات .. إنه
ميزان للعقل ، يميز صحيحه من فاسده الذي شط به الغرور ،
يكونان معا - ومعهما كتاب الكون : العالم المتحددة التي أقامها الله ،
سبحانه وتعالى ، لهداية الإنسان الى سبيل الرشاد .

ومن هنا ، فإن « تحرير العقل » المسلم كقضية من قضايا أزمة
الفكر الإسلامي المعاصر - يجب أن تفهم على أنها تحريره من الجمود
والتقليد الأعمى .. وتحريره من الغرور .. وتحريره من الهوى ..
تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف ، سواء أكان هذا
السلف هو سلفنا نحن ، أم سلف الحضارة الغربية .. فالجمود
النصوصي آفة ، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم
مستوردة عن « الآخر الحضاري » ! ..

والغرور العقلاني ، الذي يزعم أهله قدرة العقل على الاستقلال بإدراك أى شئ ، الى الحد الذي يحكمون فيه « بالاستحالة » على كل ما لاتدركه عقولهم .. هو موقف أشبه مايكون بعث الطفولة - مع افتقاره الى براءة الأطفال ؟! ..

فإذا كان المنهج العلمى فى التفكير ، والسبيل الموضوعى لاكتشاف الحقيقة وتحصيل المعرفة والوعى بالوجود ، وكذلك الأسلوب الدقيق لوصف المكتشفات والتعبير عنها .. اذا كان ذلك جميعه رهنا برؤية الظاهرة موضوع الدرس من كل جوانبها ، والربط الحى بين كل سماتها وقسماتها وعواملها وأسبابها وتأثيراتها وظواهرها ومتغيراتها .. فإن المنهج الاسلامى ، الذى لايقف فى العالم ، عند « عالم الشهادة » وحده .. وفى الإنسان عند « الحاجات الاقتصادية » وحدها .. وفى المجتمع عند « العوامل المادية » أو « الفكرية » دون غيرها .. وفى سبل الوعى والمعرفة عند « الحواس » دون سواها .. إن هذا المنهج الاسلامى الجامع المحيط ، هو المنهج العلمى الوحيد .. وإن سبيله هو السبيل الموضوعى لاكتشاف الحقيقة ، وإن أسلوبه هذا هو الأسلوب الأدق فى وصفها ..

وفى ضوء هذه الحقيقة ، نتساءل - التساؤل الإنكارى والاستنكارى ! - لماذا يقف « الجدل » فقط عند « الفكرة » وحدها - كما هو حاله عند « هيجل » Hegel [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] ؟؟ .. ولماذا يقف هذا « الجدل » عند « المادة » وحدها

– كما هو مذهب ماركس Marx [١٨١٧ – ١٨٨٣ م]
و« أنجلز » Engels [١٨٢٠ – ١٨٩٥] .. لماذا لا يكون
« الجدل » والعلاقة في الظاهرة المدروسة – فكرية أو طبيعية أو
إنسانية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية – شاملا وجامعا ومحيطا
بكل الجوانب والسمات والقسمات والمؤثرات ، مع إعطاء كل عامل
وزنه وحقه وقدره في الفعل والانفعال ؟؟ ..

إن الذى لا يصدق بما هو أبعد مما تدركه التجربة الحسية والعقل
المحدود القدرات ، فينفى العلمية عن كل مالا يخضع للتجريب
والاختبار الحى ، هو أشبه مايكون بمن يكذب بوجود ما لا تدركه
عينه المجردة ، قبل اختراع العقل « للميكروسكوب »

و« التيلسكوب » وأمثالهما من وسائل « التكبير » و« التقريب » ..
هو أشبه مايكون بمن يكذب بما لا يحيطه عقله ، حتى ولو أحاطت
به عقول الآخرين !.. هو أشبه بمن يختزل الحقيقة إلى الحجم الذى
يستوعبه ويتسع إدراكه المحدود !.. وهو موقف قد ينقضه تطوره
هو ، ويغيره نمو إدراكه هو ، وذلك فضلا عن إدراك الآخرين ،
وعن الإدراك بالمناهج التى تلتزم – بحق – الرؤية والإدراك للأشياء
والظواهر من كافة الجوانب ، ومن جميع الوجوه ، وفي كل الأبعاد .

إن « ماركس » ، الذى لم ير من القوى المحركة للتطور والصناعة
للتاريخ ، والفاعلة في أدوات الانتاج ، والحاسمة في علاقات الإنتاج ،

سوى القوى المادية - وفي مقدمتها الاقتصاد - فأرجع إليها جميع ماعداها - إن ماركس هذا عندما اطلع على طرف من تاريخ التطور الاجتماعى للشرق الإسلامى ، وقرأ - بمكتبة المتحف البريطانى - أحد كتب « الأموال » الإسلامية ، بدا له جديد لم يكن فى نطاق إدراكه عندما وقف بعوامل التطور وأدوات الانتاج وعلاقاته وبالجدل عند المادة وحدها .. فكتب - فى « مراسلاته إلى أنجلز » ينبه على أهمية دراسة تراث الإسلام ، لاكتشاف وتحديد التميز الذى فيه .. وإذا كانت مشاغله ومنيته قد حالت بينه وبين تحقيق عزمه على دراسة التراث الاقتصادى والاجتماعى للإسلام ، فإن الذين أتوا من بعده قد سلموا بهذا التميز ، لكن طغيان النزعة المادية قد منعهم من تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية .. فتحدثوا عن « نمط الانتاج الآسيوى » - ولم يقولوا « الإسلامى » - ثم إنهم - وهذا هو الأهم - نكصوا على أعقابهم ، فلم يستخلصوا من هذا النمط المتميز فى الانتاج منهجا جديدا ينقض الدوران فى منهجهم الفكرى حول المادة ، كالعامل الأول والأوحد فى الفعل والتأثير .. حتى جاء واحد من فلاسفتهم المعاصرين - روجيه جارودى - فكتب - قبل اهتدائه إلى الإسلام - يقول : ان الماركسية نظرية أوروبية ، لأن أصولها ومكوناتها أوروبية غربية :

- ١ - الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ..
- ٢ - والاشتراكية الفرنسية ..
- ٣ - والاقتصاد السياسى الانجليزى ..

ولو أن الظروف قد أتاحت للماركس تحقيق العزم الذى حَدَّث
« إنجلز » عنه فى « المراسلات » ، فاستكمل دراسة تراث الإسلام ،
لأصبح للماركسية أصل رابع ، غير أوربى ، ولخرجت من إطار
النظرية « الاقليمية » ، ولتبدل حالها بهذه الإضافة الاسلامية .. وذلك
بدلاً من أن تظل — كما حدث لها — « اقليمية » ، بل
و « ريفية » ^(١) ١٩ ..

ذلك شاهد واحد على ما فى غرور العقل من شطط وخطل
وخطر .. وبرهان على أن تحرير العقل — كقضية من قضايا أزمة
الفكر الإسلامى المعاصر — يجب أن يعنى تحريره من جمود التقليد
الأعمى ، ومن الغرور ، ومن الهوى .. جميعاً .. فهذا هو — بحق
— جوهر التحرير ، وكامل التحرير ! .. ورحم الله الأستاذ الامام
الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]
عندما تحدث عن هذه المهمة — باعتبارها أولى المهام التى جاهد فى
سبيل انجازها — فقال « لقد ارتفع صوتى بالدعوة الى : تحرير الفكر
من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور
الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى منابعها الأولى ، واعتباره
من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ،
وتقل من خلطه وخطبه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم

(١) انظر محاضرة جارودى عن « الإسلام والإستراكية » - مجلة « الطليعة » - المصرية - عدد
يناير ١٩٧٥ م . ص ١٤٩ ، ١٥٣ . وانظر - كذلك - جارودى (ماركسية القرن العشرين)
ص ٥٩ ، ٧٤ ترجمة : نزيه الحكيم . طبعة بيروت ١٩٦٧ م .

الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ، باعثة على البحث
فى أسرار الكون ، داعية الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل
عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل ، كل هذا أعده أمراً
واحداً .. (١) ..

هذا عن قضية : العقل .. ومكانته من سبل النظر الأخرى ..
وعن تحريره ، لينهض بدوره فى اخراج الأمة من مأزقها الحضارى ،
بإخراج فكرها من الأزمة التى تمسك منه بالحناق ! ..

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٢ ص ٣١٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة .
طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

علاقة الجديد والتجديد بالتراث

ونحن نعالج مشكلات أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، علينا أن نذكر للإسلام فى التجديد ، منهجا متميزا .. « فالتجديد » غير « النسخ » .. فهو « الحداثة » - بالمعنى الغربى - نقيضان . إن من موروثنا الفكرى ما هو وحى إلهى ، ووضع ربانى ، مثل ويمثل فى حياة هذه الأمة : الصانع الأول لوجودها الحضارى والقومى والفكرى .. هو صانع وحدتها ، ومقتضى دولتها ، ومعين حدود وطنها ، وخالق مزاج هويتها ، والمكون الأعظم لبصمتها الحضارية التى تميز بها وتمتاز فى « متدى حضارات » الأمم والشعوب ..

وهذا القطاع من موروثنا الفكرى ثابت من الثوابت .. ونسخه إنما يعنى نسخ تميز وامتياز هذه الأمة .. إنه رحم نسبها الشرعى ، الذى يمنع عنها وصمة عار « التابع - اللقيط ! » ..

وإذا كان « النسخ » أو « التجاوز » غير وارد مع هذا القطاع من الموروث - الذى تمثل ويتمثل فى البلاغ القرآنى وفى البيان النبوى لهذا البلاغ - فإن للتجديد معه صلة وسببا ونسبا ، تحتاج إلى البيان والتحديد .. فالتجديد فى هذه الثوابت وارد ، لا لأن حديث رسول الله ﷺ قد نص على « تجديد الدين » - وليس فقط تجديد فكرنا

« الدينى » - وإنما لأن هذا التجديد هو السبيل لوفاء هذا
« الثابت » بدوره الذى أنيط به فى حياة هذه الأمة .. فحتى يظل هذا
البلاغ القرآنى وبيانه النبوى ثابتا فى حياة هذه الأمة ، لابد وأن يبقى
« فاعلا » فى هذه الحياة - والا كان ثابتا « ثابتا متحيا » ! .. كما
هو الحال مع « المومياوات » ! .. وحتى نضمن فعل هذا « الثابت »
فى الحياة المتجددة ، لابد من أعمال سنة التجديد لتجلية الوجه
الحقيقى لمبادئه وعقائده ومناهجه وأحكامه من زوائد البدع
ونواقصها ، ومن غبار الخرافة وركام الشعوذة والمخرافات
التصورات ، التى تعلو وجهه الحقيقى مع كبر السنين وتوالى الحقب
والقرون .. فالعودة الى المنابع الجوهرية والنقية فى هذا « الثابت »
وتجلية وجهه الحقيقى لتعود له قدرات الفعل والتأثير ، هى
« سلفية » و « تجديد » فى ذات الوقت - وهذا هو المعنى الطيب
الوحيد لمصطلح « السلفية » فى منظور الإسلام !.. إنها العودة للمنبع ،
للمخاصمة للحاضر والمستقبل ، وإنما لاستصحاب المنبع كى نعيد قرائنه
على الواقع الجديد !..

ثم .. إن نصوص هذا « الثابت » - الذى اكتمل بتمام الوحى
- هى نصوص متناهية ، بينا وقائع الحياة وواقعها رحم ولود
بالتجديد الذى لا يعرف التناهى ولا الحدود .. وهنا يتمثل التجديد
فى صورة « الفروع » التى تحمل روح « الثابت » وأصوله ومزاجه
العقدى والحضارى ، كى يستظل بها هذا الواقع الجديد .. فالتجديد

الذى لا يستمد شرعيته وخصوصيته من « الثابت » ، لا يعد تجديدا ، لأنه يقطع صلات الواقع الجديد بالأصول الثابتة ، إنه « نسخ » للثوابت ، وليس « تجديدا » لها .. وكذلك يفعل « الجمود » الذى لا يمد « فروعا » جديدة لتظلل الواقع الجديد ، لأنه يؤدى الى ذات النتيجة ، عندما ينسخ « الواقع » عن « الثابت الفكرى » .. فكلاهما - الجمود والاستلاب الحضارى - وجهان كالحان لعملة واحدة ، هى عملة « السلفية المعطلة » - إذا جاز التعبير - فهى تعطل عمل « الثابت » الموروث فى الواقع المعاصر ، إما بالانسحاب من العصر الى الماضى ، وإما باستعارة « ثابت حضارى غريب » تفرضه على الواقع الذى عطلت « ثابتا » عن العمل فيه .. فهو انسحاب من « عصرنا » نحن ، وإن لم يكن انسحابا من « العصر » بإطلاق ؟ ..

تلك هى حدود « القداسة » فى الموروث الفكرى .. وحدود التجديد فيه .. أما ذلك المورث المتنوع والغنى ، والذى يمثل فهم السلف للبلاغ القرآنى ولبيان النبوى ، والذى أبدعه أسلافنا فى علوم الحضارة ، ثقافة ومدنية ، فإنه بالنسبة لنا : « كنز - مرشد » ، علينا أن نتعامل معه بعقل معاصر ، ونظرة ناقدة ، وفكر مستنير ، لنسترشد ونهتدى بما فيه من علم نافع مازال صالح العطاء - وهو كثير ، وكثير جدا .. ولنتعش به ذاكرة الأمة ، ونشحن به كبرياءها المشروع ، اللازم لها وهى تواجه عاقى التحديات ، ولتوفر جهودا

كثيرة تلزمنا إذا نحن اهتمناه وبدأنا من حيث، بدأ الأسلاف .. وهو صنيع السفهاء الذين يرثون موروثة غنيا لا يدركون قيمة وعظمة ما فيه ! .. وأيضا لنحتفظ لهذه الأمة بخيوط تواصلها الحضارى متينة غير رثة ولا واهية ، ففي ذلك ضمان استقامتها على طريقها في غابة الصراع الحضارى القائم الآن في عالمنا على قدم وساق ..

أما ماتجاوزه التطور من إبداع السلف ، فإننا نتجاوزه ، معترزين به ، وواضعين إياه في متحف التاريخ الفكرى ، مادة للعظة والعبرة ، ووثيقة في دراسة هذا التاريخ ! ..

ذلك هو مفهوم .. وتلك هى حدود « الاستلهام » و « التجاوز » لما ورثناه من إبداع أسلافنا في ميادين الفكر والممارسات .
إننا مدعوون إلى « حفظ » كل تراثنا ، حفاظا على ذاكرة الأمة ، واستفادة بخبرات السلف ، على النحو الذى يضيف أعمارهم إلى أعمارنا ١٩ .. ومدعوون إلى أن « نُحْيِي » من هذا التراث فى واقعنا المعاصر مآلديه صلاح وصلاحية كى يزامل إبداعنا الجديد فى تحقيق المصالح الشرعية المعتمدة والعصرية لأمة تزاخم الأعداء وتواجه التحديات وترنو الى مستقبل أكثر إشراقا من كثير من صفحات تاريخها الطويل ! ..

الهوية الثقافية

بين « الأصالة » و « المعاصرة »

في بداية الحديث عن قضية « الهوية الثقافية » وعلاقتها بكل من « الأصالة » و « المعاصرة » .. لابد من تحديد المعنى العلمي للمصطلحات ..

● **فالهوية :-** في عرف حضارتنا العربية الإسلامية - مأخوذة من : « هُوَ .. هُوَ » .. بمعنى : جوهر الشيء .. وحقيقته .. فهوية الإنسان .. أو الثقافة .. أو الحضارة .. هي : جوهرها وحقيقتها .. ولما كان في كل شيء من الأشياء - إنسانا أو ثقافة أو حضارة .. « الثوابت » و « المتغيرات » .. فإن هوية الشيء هي « ثوابته » ، التي « تتجدد » ولا « تتغير » ، تتجلى وتقصص عن ذاتها ، دون أن تخلى مكانها لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة !.. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان ، تتجدد فاعليتها ، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طواريء الغبار وعوامل الطمس والحجب ، دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات !..



● **والثقافة :** هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها ..
فالتثقيف : من معانيه : التهذيب .. وإذا كانت المدنية هي تهذيب
الواقع بالأشياء ، فإن الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار ..
وكلاهما عمران .. عمران للنواقع وعمران للنفس .. فهما شقا
« الحضارة » - التي هي « العمران » ..

وتعلق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها ، هو
الذى يعطى لثقافات الحضارات التميز تميزاً .. منبعه ومنطلقه
ودواعيه : تميز النفس الإنسانية ، في كل حضارة من الحضارات ،
بتميز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات التى تميز بين
« البصمات » الثقافية في أهم هذه الحضارات ..

● **والأصالة :-** فى عرف العربية - من : الأصل .. وأصل كل
شئ : نسه ، الذى إليه يرجع وله ينتسب .. وجوهره وحقيقته
وثوابته الباقية ، والمستعصية على الفناء والزوال .. فالأصالة ، فى ثقافة
ما ، هى جذورها الأصيلة ، وثوابتها المستمرة ، أى هويتها المثلثة
« للبصمة » التى تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات
الأخرى ..

● **أما المعاصرة :** فإنها المفاعلة ، أى التفاعل بين الإنسان - أو
الثقافة أو الحضارة - وبين العصر - أى الزمن - المعيش .. فإذا
تمايزت الأمم فى ثقافتها ، لتمايز هويات هذه الثقافات ، فإنها ولا بد

متميزة في تفاعلها مع العصر الذى تعيش فيه .. فلأهم المتميزة في الهويات الثقافية « معاصرات » متميزة !.. وليست هناك في العصر الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات ، كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هي استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة في عصر ما .. وليست - كما هي حقيقتها - المفاعلة مع العصر !..

إنها أشبه ماتكون بتفاعل الإنسان وتلاؤمه مع اللحظة الراهنة من عمره ، تفاعلا يضيف به الجديد ، ويتجاوز به غير الملام من موارثه ، وفق المعايير التى هى ثوابته .. وأصالته .. وهويته .. إنها الهوية المتميزة .. والأصالة المتميزة ، تتجلى في طور جديد .. كالإنسان الذى ينمو ويتطور دون أن يفقد هويته أو يتنازل عن أصالته أو يمحو « البصمة » التى تميزه عن غيره من الناس !..

إذن ... فلكل ثقافة أصالة متميزة ، هى هويتها .. وجوهرها .. وحقيقتها .. وثوابتها .. ولكل أصالة ثقافية متميزة معاصرتها المتميزة كذلك !..

هذا عن المصطلحات .. ومضامينها .. ومايمثله ضبط هذه المضامين من إسهام في وضوح الرؤية الذى نطمح إليه .. وضوح الرؤية لهذا الموضوع .. موضوع : « الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة » ..

إذا ما انتقلنا إلى صلب الموضوع ، وتساءلنا عن هوية ثقافة
أمتنا ، التي هي جوهر هذه الثقافة ، وحقيقتها ، والأصالة المميزة
لها .. فإننا نستطيع أن نقول : إن الاسلام ، منذ أن تديننت به أغلبية
هذه الأمة قد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة ثقافة هذه الأمة .. فهو
الذى طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته .. فعاداتنا
وتقاليدنا ، وآدابها وفنونها ، وسائر علومها الإنسانية - في السياسة
والاقتصاد والاجتماع - وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية ..
ونظرتها للكون .. وللذات .. وللآخر .. وتصوراتها لمكانة الانسان
في هذا الكون .. من أين أتى ؟ .. وإلى أين ينتهى ؟ .. وحكمة هذا
الوجود وغايته ؟ .. كل ذلك - وما مثله - قد انطبع بطابع
الاسلام ، واصطبغ بصبغته .. حتى لنستطيع أن نقول ، ونحن
مطمئنون كل الاطمئنان ، إن ثقافتنا ثقافة إسلامية .. وإن معيار
الدخول والخروج في ميدان ثقافتنا ، والقبول والرفض فيها ، هو
المعيار الاسلامى ..

وإذا كانت تيارات الأصالة الفكرية ، في واقعنا المعاصر ، إنما تمثل
أساسا - بل وتكاد تنحصر - في :

- أ - تيار إسلامى .. تنتمى إلى فصائله المتعددة ، أغلبية الأمة ..
- ب - وتيار قومى .. هو - في أغلب فصائله - امتداد لأصالة الأمة
اللغوية والتاريخية .

وإذا كان الايمان بأن الاسلام هو ثقافة أمتنا وأصالتها ومعيار تميز

هويتها - ومن ثم معاصرتها - عن أمثالهما في ثقافات أم الحضارات الأخرى .. إذا كان ذلك مُسَلِّمَةً من المسلمات الفكرية لدى المسلمين والإسلاميين من أبناء أمتنا .. فإنه ، أيضا ، من المسلمات التي يدعو إليها أبرز فصائل التيار القومي في واقعنا العربي والإسلامي ..

وإذا كانت هذه الصفحات لاتتسع لاستقصاء الشواهد على أن هذه هي حقيقة موقف التيار القومي من « إسلامية ثقافتنا » .. فإننا نكتفى ، للدلالة على هذه الحقيقة ، بكلمات لواحد من المفكرين والساسة العرب .. هو أبرز المنظّرين المعاصرين للتيار القومي والحركة القومية العربية .. وهو أبرز مسيحي عربي برز في الميدان السياسي للتيار القومي العربي المعاصر .. فكلماته عن « إسلامية ثقافة أمتنا » هي التعبير عن التقاء التيار القومي ، مسيحيه ومسلميه ، مع التيار الإسلامي حول هذه الحقيقة من حقائق هويتنا وأصالتنا الثقافية ..

يقول المفكر القومي - المسيحي الأرثوذكسي - ميشيل عفلق

[١٩١٠ - ١٩٨٩ م] :

« لا يوجد عربي غير مسلم .. فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون .. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم ، إذا كان هذا العربي صادق العروبة ، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية .. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو

لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أمن شيء في عروبتهم .. ولئن كان عجبى شديدا للمسلم الذي لا يحب العرب ، فعجبى أشد للعربى الذي لا يحب الإسلام ١٩٠٠ (١)

إذن .. فهويتنا الثقافية ، المثلثة لأصالتنا الثقافية .. هوية إسلامية .. وأصالة إسلامية .. على هذه الحقيقة تجتمع تيارات الأصالة الفكرية والسياسية في بلادنا - إسلامية وقومية - بلسان أبرز منظريها ، مسلمين ومسيحيين ..

★ ★ ★

(١) ميشيل عفلق [في سبيل البحث - الكتابات السياسية الكاملة] ج ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، ج ٥ ص ٦٨ طبعة بغداد - دار الحرية للطباعة - ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ م ..

لكن ... ماهى السمات والقسمات الرئيسية التى ميزت ثقافتنا الإسلامية ، فى طور أصالتها ، عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى .. والتى يجب أن تميزها فى طور معاصرتها الراهن ، وفى المستقبل كذلك ، عن الثقافات الأخرى غير الإسلامية ؟؟..

بالطبع ، فإن الإطار المحدد والحيز المحدود لهذه الصفحات لا يسمح باستقصاء هذه القسمات الثوابت ، المكونة لهوية ثقافتنا ، والتى تمثل « معايير إسلاميتها » .. ولذلك ، فإننا سنختار سمة رئيسة من سمات هذه « الإسلامية الثقافية » هى : سمة « الوسطية الإسلامية » .. ثم نضرب لها وعليها - فى إنجاز شديد - بعض الأمثال الذى توضح ماذا تعنيه الوسطية الإسلامية فى تميز أصالتنا ومعاصرتنا الثقافية عن ثقافات أمم الحضارات الأخرى ..

إن الوسطية ، فى المنظور القرآنى ، هى صفة رئيسة وجامعة للأمة الإسلامية .. بل إنها إرادة الله لهذه الأمة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾^(١) ..

وإذا كانت الوسطية تعنى رفض الانحياز إلى طرف ضد طرف ، وقطب من أقطاب الظاهرة دون القطب الآخر .. فإنها - فى المفهوم الإسلامى - ليست التوسط المعزول عن الطرفين والقطبين والمغاير لهما تمام المغايرة ، إنها موقف جديد ، وثالث ، لكنه لا يغاير قطبى الظاهرة المدروسة ، وإنما يجمع - بالنظرة الشاملة - كل ما يمكن

(١) سورة البقرة (٢) - الآية : ١٤٣ .

جمعه ، ويؤلف كل ما يمكن تأليفه من قطبي الظاهرة المدروسة .. إنها ليست نقطة رياضية ثابتة تتوسط قطبي الظاهرة المدروسة ، وإنما هي موقف جديد يتألف من عناصر الحق والعدل في القطبين معا .. إنها العدل والتوازن بين القطبين ، وليست الانحياز لواحد منهما ولا المغايرة التامة لهما ١.. إنها الحق بين باطلين .. والعدل بين ظلمين .. والاعتدال والتوازن بين تطرفين وغلوين ١..

ذلك هو معناها ، الذي يحدده الحديث النبوي الشريف : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » (١) .. فالكرم : توازن ، وعدل بين الشح وبين الإسراف والتبذير .. وفيه من تدبير الشحيح ومن عطاء المسرف القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه ١.. والشجاعة : وسط بين الجبن وبين التهور .. وفيها من تأني الجبان وحساباته ومن إقدام المتهور القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه ١ .

وإذا نحن أردنا أن نضرب بعض الأمثال على انطباع ثقافتنا الإسلامية - بل وعقل الأمة ووجدانها - بهذا الوسطية الإسلامية ، ومن ثم تميز حضارتها بها .. فإن من الأمثال على ذلك :

● موازنة ثقافتنا وحضارتنا بين « العقل » وبين « النقل » .. فهي لا تنحاز لواحد منهما دون الآخر ، ولا تنفخ بينهما وبمعزل عن كليهما .. وإنما هي تجمع وتؤلف بين ما يمكن جمعه وتأليفه من براهينهما .. تؤاخي بين « الحكمة » وبين « الشريعة » باكتشاف

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في [المسند] .

عليتهما من الاتصال .. وتقرأ « النقل » بـ « العقل » .. وتحكم غرور « العقل » فيما لا يستقل بإحراكه ، بالأدلة « الثقيلة » التي جاءت من صاحب العلم المحيط والكل ، عالم الغيب والشهادة ، سبحانه وتعالى !..

● وهي توازن ، بهذه « الوسطية الجامعة » ، بين مصدرى المعرفة : « الوحي » - وعلومه الشرعية - و « الوجود » - وعلومه الطبيعية - فلا تعتمد « الوحي » وحده ، دون « الوجود » ، وأيضاً لاتصنع العكس .. وكذلك لاتقف بينهما وبمعزل عنهما منحازة « للذوق » و « الحدس » و « العرفان الغنوصي^(١) الباطني » .. وإنما هي ترجع إلى « كتاب الوحي المقروء » - القرآن الكريم - و « كتاب الكون المنظور » - الطبيعة - حتى لقد استخدمت حقائق علوم الطبيعة أدلة على إثبات وجود الله - عندما استدلت بالمصنوع على الصانع - واستخدمت آيات الله وسنته سبلاً لفهم الطبيعة وتصور ماوراءها !..

● وهي قد صنعت ذلك في فلسفتها حول « مكانة الإنسان في هذا الوجود » .. فلم تؤله الانسان ، معتبرة إياه سيد هذا الوجود .. وكذلك لم « تهمش » دوره ، أو تحقر من مكانته ، فتعتبره « الحقير » الذي لاسبيل لخلاصه إلا بالفناء في الغير أو في المطلق .. ولم تقف ، أيضاً ، بين هذين الموقفين .. وإنما جمعت - بالوسطية - مايمكن

(١) الغنوصي - نسبة إلى الغنوصية - وإلى غنوص - أى « المعرفة » نزعاً فلسفياً ودينية باطنية ، قائمة على أن المعرفة هي طريق الخلاص للإنسان ، وليس الايمان الدينى ، سواء أكان مصدره العقل أو النقل أو هما معاً .

جميعه وتأليفه منهما .. فرأت الإنسان سيدا في الكون وليس سيد الكون ، لأنه « خليفة » عن سيد الكون ! ..

● وانطلاقا من هذه الوسطية الإسلامية في تصور « مكانة الإنسان في هذا الوجود » كانت الوسطية الإسلامية في « الحرية الانسانية » .. فالإنسان ليس « المُجَبَّر » الذي لاحول له ولاطول .. وليس « الحر » ، دون حدود أو قيود .. هو حر في إطار قدرته واستطاعته ، وفيما هو مقدر له ، وبإزاء الخيارات التي ليست من صناعه .. وهو - كخلق من الله - ملزم ومقيد بشريعة الله .. هو حر في إطار « عقد الاستخلاف والإتابة والتوكيل » .. وشوراء - الفردية والاجتماعية - في الأسرة والدولة - وهي مشاركته الحرية - بحكومة بضوابط « الحلال والحرام » الدينية ..

● و« دولته » ، ليست « الدولة الدينية » ، التي تنفى كون الأمة « مصدر السلطات » .. وليست « الدولة العلمانية » ، التي تبيع لسلطات الأمة تجاوز « عقد الاستخلاف » بإباحة الحرام وتحريم الحلال ! ..

● ونظامه الاجتماعي ، هو الذي يوسط بين « النظام الطبقي » ، الذي يجعل الطبقة - بمرجوزية كانت أو البروليتاريا - هي حاملة الرسالة ، رسالة التقدم وال عمران ، والساعية إلى تقي الآخر ، والانفراد بالسلطات والثمرات .. وكذلك ، ليس هو النظام

الاجتماعى الذى ينكر التمايز الطبقي فى المجتمع .. وإنما هو النظام الذى يتوسط بين هذين النموذجين ، جامعا فى نموذج ما يمكن جمعه وتأليفه منهما .. فالإسلام دين الجماعة .. والمسئولية فيه فردية فى فروض العين - واجتماعية - فى فروض الكفاية - والتمايز الطبقي فى مجتمعه حقيقة تمثل الفطرة الإنسانية فى تفاوت القدرات والملكات والاحتياجات .. والعلاقة بين هذه الطبقات لا بد وأن يحكمها : التوازن - أى العدل - فكل طبقة تعتمد على الأخرى .. فهى علاقة « الارتفاق » و« التسخير » - الشامل لكل ظواهر الطبيعة وقواها - وليس علاقة « السخرة » أو « الظلم والاستغلال » ..

وإذا اختل ميزان العدل بين الطبقات ، فإن الوسطية الإسلامية ترفض « الاستسلام » لهذا الظلم .. وأيضاً ترفض « الصراع » الذى يطمح به طرف لنفى الطرف الآخر ، والانفراد بالسلطات والشمرات .. ترفض « الاستسلام » و« الصراع » كليهما ، وتقدم « الدفع الاجتماعى » ، الذى هو « حراك اجتماعى » يبتغى تصحيح العلاقة الاجتماعية بين فرقاء متعددين ، وإعادة هذه العلاقة إلى لحظة « العدل - التوازن » .. فهذه « الدفع » تغيير المواقع ، وليس نفى الآخر الاجتماعى ﴿ إُدْفِعْ بِالْأَيْمَنِ الَّذِي يَدْفَعُ بِكَ ﴾ (١) .

(١) سورة الممت (٤١) - الآية ٣٤ .

● ولقد ذهبت ثقافتنا - ومن ثم حضارتنا - هذا المذهب - في «الوسطية الجامعة» - حيال «نظرتها إلى الإنسانية» .. فكانت «التعددية - في إطار الوحدة» هي زاوية رؤيتها للآخرين ..

فدين الله واحد ، أزلا وأبدا .. وشرائعه متعددة بتعدد أمم الرسالات السماوية ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ..﴾^(١) .. فهنا تعددية في «الشرائع» ، في إطار وحدة «الدين» ..

والإنسانية واحدة ، واختلافها وتمايزها إلى أمم وشعوب وحضارات ، سنة من سنن خالقها وآية من آياته وقانون من قوانين الوجود ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣)

فالواحدية ، في الشريعة .. أو القومية .. أو الحضارة ، مرفوضة إسلاميا .. والتعددية هي الفلسفة التي يؤكد عليها الإسلام في كل أنواع الوجود .. والاستثناء الوحيد من التعددية هي ذات الخالق الواحد سبحانه وتعالى .. ولذلك ، فالعالم ، في الرؤية الإسلامية ،

(١) سورة المائدة (٥) - الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الحجرات (٤٩) - الآية : ١٣ .

(٣) سورة الروم (٣٠) - الآية : ٢٢ .

هو « متدى حضارات » ، تفاعل وتعارف ، من موقع التمايز الذى يحفظ لكل حضارة ما يميزها عن غيرها من الحضارات ..

● وبهذا النهاج ، أيضا ، كانت نظرة ثقافتنا إلى التطور .. وإلى التاريخ .. وإلى الموارث الحضارية .. فميزت بين « الثابت » ، الممثلة « للهوية » ، وبين « المتغيرات » .. وجعلت « التجديد » قانونا فى عالمى الدين والدنيا ، حتى لقد قال نبينا ، ﷺ : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (١) .. وهى بهذا قد رفضت الجمود لكنها ترفض « الحداثة » التى تقتلع الجذور ، وتطمس الهوية ، وتقطع التواصل الحضارى ، عندما تسوى بين « الثابت » وبين « المتغيرات » .. ترفض هذه « الحداثة » كما ترفض « التحجر والجمود » ، وتختار ، بدلا منهما ، سبيل « التجديد » ..

★ ★ ★

تلك أمثلة على ماتعنيه « الوسطية الإسلامية الجامعة » فى تميز هويتنا وأصالتنا الثقافية .. وإذا كانت « الثابت » فى سمات « الهوية الثقافية » لها من الاستمرارية والفعل ما لا يكون « للمتغيرات » و« الجزئيات » ، فإن « التجديد » و« التفاعل » مع الحضارات المختلفة ، يقتضى من كل ثقافة من الثقافات - ويتطلب لها - التمييز ، فى ثمرات الفكر الإنسانى ، بين « المشترك الإنسانى العام » ، الذى

(١) رواه أبو داود .

لا تتغاير الحضارات ولا تختلف في حقائق وقوانين علومه ، لأنها ثابتة ومحايده ثبات وحياد مادة هذه العلوم وموضوعاتها .. وبين « الخصوصيات الحضارية » - ومنها الثقافات - وهي التي موضوعها « النفس الإنسانية » ، المتميزة في كل حضارة من الحضارات ، تبعاً لتمييز المكونات التي تنطبع على صفحاتها : دينا ، وفلسفة ، وآداباً وفنوناً ، وعادات وتقاليد .. وموارث تميز فيها أُم الحضارات ..

وإذا كانت فلسفة العلوم الطبيعية - ذات القوانين والحقائق الثابتة - هي ما تميز فيها الحضارات .. فإن الثقافة - من باب أولى - هي ميدان من ميادين التمايز والتعددية بين الحضارات ..

وعلى « تقنيات الاتصال الحديثة » أن تحقق للعلاقات الثقافية بين أُم الحضارات الإنسانية العدالة التي تحفظ المساواة بين هذه الأمم ، كأعضاء متساوية الحقوق والواجبات في « متدى الحضارات العالمية المتميزة » .. وأن لا تكون أداة قهر وغلبة لثقافة على ثقافة ولحضارة على حضارة أخرى .. وإلا فإنها ستفتح على الأمم الفقيرة والمستضعفة أبواب « رد الفعل العنيف والمضاد » .. وأبواب « الرفض الفكرى » ، الذى لا يميز بين ماهو « مشترك إنسانى عام » وبين « الخصوصيات الثقافية والحضارية » ..!

وإذا كان « الرفض والانغلاق » يقود أصحابه إلى « الضمور » ، فإن « التقليد والتبعية » تقود أصحابها إلى « الذوبان والفناء » فى الآخرين ..!

العلاقة مع الحضارات الأخرى

وإذا كان هذا هو الموقف من علاقة « الأنا : الحاضرة » في الثقافة الإسلامية بـ « الموروث الحضارى » ، والهوية الثقافية .. فإن الموقف الراهن في أزمة الفكر الإسلامى المعاصرة ، يشهد قضية أخرى يدور حولها الجدل ، ويحتمد في المخرج منها الخلاف .. تلك هى قضية : علاقة « الأنا : الحضارية » بـ « الآخر الحضارى » .. وعلى وجه التحديد ، بـ « الآخر الحضارى » ، المهيمن عالميا ، وهو الحضارة الغربية !..

وفي اعتقادى أن الرؤية الإسلامية لهذه القضية هى من البساطة والتميز والموضوعية ، إلى الحد الذى لا يد وأن تحسم حسما نهائيا ، شريطة أن تفهم عناصر هذه الرؤية الإسلامية فهما جيدا .. وهى العناصر التى نوجزها فى هذه النقاط :

● إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم : « وحدة واحدة متساوية فى الخلق لله الخالق الواحد » .. وباعتبارهم ، فى ذات الوقت : « متعددين فى الروابط والجامعات » .. وهذه « الوحدة فى الخلق » مع « التعددية فى الجامعات » ، هما موطن الإثارة فى الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

خير (١) ﴿..

فلاشتراك والوحدة في الخلق ، وفي الانسانية ، يزامله التعدد والتميز إلى شعوب وقبائل وأقوام .. بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه ، وسنة من سنته في خلقه ، فيقول : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (٢) .

● وفي الدين أيضا ، يؤكد الإسلام على « وحدة البشرية في دين الله الواحد » ، أزلا وأبدا .. مع « تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات الدينية » ، أزلا وأبدا كذلك .. فالقرآن الكريم قد نزل ﴿ بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٣) و ﴿ هو الحق مصدقا لما معهم ﴾ (٤) .. والرسول ، ﷺ ، كذلك ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ (٥) .. والله سبحانه وتعالى ، يتحدث إلى رسوله فيقول له : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٦) .

(٤) البقرة : ٩١ .

(٥) آل عمران : ٨١ .

(٦) آل عمران : ٨٤ .

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الروم : ٢٢ .

(٣) البقرة : ٩٧ .

ومع هذه « الوحدة في الدين » ، كانت « التعددية في الشرائع » لدى أمم الرسالات .. فالبعثة المحمدية قد تميزت بالشرعية الخاتمة ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ (١) .. وكذلك كان حال الأمم السابقة ، فاليهود ﴿ عندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ (٢) .. ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ (٣) .. وكذلك حال النصارى مع الإنجيل ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ (٤) .. ثم كانت الشريعة الخاتمة ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم . عما جاءك من الحق ﴾ .. ثم تمضى الآية لتقرر أزلية وأبدية هذه السنة الإلهية في تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات ، فتقول : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ (٥) ..

ففى الدين : وحدة الرسل والرسالات ، ووحدة أمم هذه الرسالات .. وفى الشريعة : تعددية تمايز فيها وبها أمم الرسالات .. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات .. ولقد وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا : « إن الشرعة والشريعة : هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة .. والمعنى : أن الله جعل

(٤) . المائدة : ٤٧ .

(٥) . المائدة : ٤٨ .

(١) . الجاثية : ١٨ .

(٢) . المائدة : ٤٣ .

(٣) . المائدة : ٤٤ .

التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا في الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد ، لاخلاف فيه .. « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » : أى لجعل شريعتكم واحدة .. « ولكن ليلوكم فيما آتاكم » .. أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم ، « والابتلاء : الاختبار » (١) ..

وعن هذه الحقيقة ، التى أفاض القرآن فى تقريرها وفى الإفصاح عنها - حقيقة : الوحدة فى الدين مع التعددية فى الشرائع - يعبر الحديث النبوى هذا التعبير الجميل ، عندما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « الأنبياء : إخوة من عُلَات - [أى من أب واحد] - وأمهاتهم شتى . ودينهم واحد » (٢) .
فكما توحد الناس ويتوحدون فى الخلق والإنسانية ، مع التعددية فى الأقوام والشعوب والقبائل والألوان واللغات .. كذلك ، قد اتحدوا فى الدين ، وتعددت أمم الرسالات فى الشرائع التى شرعها الله .. فالوحدة .. مع التعددية هى سنة الله ، التى تلتزمها الرؤية الإسلامية فى هذا الميدان ..

● وكذلك الحال فى ميدان الحضارات .. فعلى مر التاريخ عرفت البشرية التعددية فى الحضارات ، مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام بين هذه الحضارات .. فمع الخصوصيات

(١) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج ٦ ص ٢١١ - طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

الحضارية ، التي تتميز بها كل حضارة عن غيرها ، هناك ماهر مشترك إنساني عام بينها جميعا ، وخاصة في المعارف والعلوم التي تشترك في ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين .. فالعلاقة بين « الأنا : الحضارية » وبين « الآخر : الحضارى » ، يجب أن يحكمها هذا القانون .. التفاعل والتبادل الحضارى ، لا التبعية - بزعم الوحدة الحضارية - ولا الانغلاق والعزلة - بزعم الاختلاف الكامل والكلى - .. فكما أن التعددية في الأمم هي سنة من سنن الله في الخلق ، كذلك التعددية في الحضارات ، لأن هذا التمايز الحضارى هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمم .. وكما أن « التعارف » - الذى أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات بين الأمم والشعوب - يقتضى العدول عن القطيعة ، ورفض « الصراع » .. فكذلك « الاختلاف » - الذى جعله الله سنة ومظهرا للتعددية ، يقتضى رفض « التبعية » أو « الهيمنة » ، بزعم وحدة الحضارة للبشر اجمعين ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ﴾^(١) .. ولقد قال المفسرون لقوله تعالى : [ولولذلك خلقهم] : إن معناها : « وللاختلاف خلقهم »^(٢) .. ففى الاختلاف والتمايز : التنوع ، والغنى ، والتنافس فى استباق الخيرات ..

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) [الجامع لأحكام القرآن] ج ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ .

وهنا .. لسائل أن يسأل : إذا كانت الرؤية الإسلامية مع التعددية الحضارية ، كسنة من سنن الله في تعدد الأمم التي تتمايز تمايز الحضارات .. ومع التبادل والتفاعل الحضارى فيما هو مشترك نسانى عام بينها ، امثالاً لأمر الله وحكمته أن يكون التعارف هـ رباط وسمه العلاقات بين أمم الحضارات المتعددة .. إذا كانت هذه هى رؤية الاسلام لهذه القضية ، فما الموقف إزاء علاقة « النفس والصراع » التى مارستها وتمارسها الحضارة الغربية مع وإزاء غيرها من الحضارات والموارث الحضارية التى وجدت لها لدى الأمم التى اتصلت بها أو غزت بلادها منذ الزحف الاستعماري الكبير الذى شنته على العالم قبل قرنين من الزمان ؟! ..

هنا ، وفى الإجابة على هذا السؤال ، لابد من التنبيه على رفض الاسلام أن يكون « النفس والصراع » هو طابع العلاقة مع « الغير » - فالإيمان بالتعددية يقتضى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز ، حتى تكون هناك تعددية حقيقية .. وهذه الحكمة كان « التوازن » بين الفرقاء المتميزين هو مذهب الاسلام فى العلاقة بين الطبقات والجماعات داخل الأمة الواحدة ، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى .. وهذا « التوازن » يفترض ، بل ويشترط كى يقوم وجود « فرقاء » متميزين ومختلفين .. أما « الصراع » فإنه يعنى ابتغاء « نفس » الآخر ، والانفراد والواحدية دون شريك ! ..

ولأن هذه هى فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر ، كان

استخدام القرآن الكريم لمصطلح « الدفع » عندما تدعو الحاجة ، بسبب اختلال توازن العلاقات مع الأغيار ، وحلول « الخلل » محل « التوازن » وسيادة « الظلم » بدلا من « العدل » ، وقيام « الجور » بدلا من « الوسطية » .. هنا يكون « الدفع » ، أى الحركة الاجتماعية التى تبغى إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام « التوازن » ثانية ، مع الاحتفاظ بالتعددية والتمايز للفرقاء المختلفين .. هنا يكون « الدفع » ، ولا يكون « الصراع » ، لأن الصراع يقتضى نفى الآخر ، بصرعه ، وإنهاء وجوده ، والانفراد والواحدية .. فهو ضد فلسفة التعددية ، وضد شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين .. ففى « الصراع » .. ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾^(١) .. أما فى « الدفع » فإن الغاية مختلفة : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾^(٢) ..

فإذا كانت الحضارة الغربية قد تبنت واعتمدت فلسفة « الصراع » ، فرأته قانون العلاقة فى الأحياء ، صراع البقاء فى الدارونية - وفى الإجتماع - الصراع الطبقي فى الماركسية - وفى العلاقة مع الحضارات الأخرى - المسخ والنسخ والتشويه لموارث الأمم التى أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية ... إذا كان هذا هو طابع

(١) الحاقة : ٧ .

(٢) لمعت : ٣٤ .

العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. فهو كالقتال الذى **فرض علينا - وهو كُرّة لنا ١-** وعسى أن تكون الثمرة ، ثمرة هذا الصراع الذى فرض علينا ، شحذ الهمة فى معركة التجديد للفكر الاسلامى ، لإخراجنا له من أزمتة المعاصرة ، وتجديدا لواقع الأمة به ، **لالتفنى « الآخر الحضارى »** ، وإنما لنفسه غدا ، كما قسره أسلافنا بالأمس ، على التخلي عن طموح الهيمنة الحضارية ، وعلى القبول بالتعددية ، ليصبح الكوكب الذى نعيش عليه « متسدى حضارات » ، تتفاعل وتتبادل العلم النافع ، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات .. مثلها كمثل الإنسان الراشد المستقل ، يضافح الجميع ، دون أن يفقد بصمته وهويته التى تميزه عن الجميع !..

إننا نرى الآن قضية علاقة « الأنا : الحضارية » بـ « الآخر : الحضارى » ، واحدة من قضايا « أزمة الفكر » الاسلامى المعاصر .. بينما هذه القضية لم تكن بالأمس - عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى ، هندية وفارسية وإغريقية .. لم تكن من قضايا « الأزمة » .. بل كانت من سمات « الصحة » ومظاهر « النهضة » ١٢.. وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا من الفارق بين حالنا اليوم وحال أسلافنا بالأمس .. لقد تفاعلوا مع « الآخر الحضارى » من موقع القوى الراشد المستقل ، فكانت « لمعدتهم الحضارية » - إن جاز التعبير - القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد ، بين النافع والضار ، بين الملائم وغير الملائم فى

مواريث الآخرين .. فلم تكن في العلاقة « قضية » مشكلة على الإطلاق !.. أما نحن ، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم ، الذي تحالفت عليه تحديات : التخلف الموروث .. وتحديات : الاستلاب الحضارى الوافد في ركاب الغزاة !..

وليس كالتجديد للفكر الاسلامى بابا يدخل منه العقل المسلم إلى عالم النهضة - له ولأمته - من جديد ، فيتجاوز هذه المآزق ويحل هذه المشكلات .



إنقسام العقل المسلم حول « مرجعية » المشروع الحضارى

لا يختلف « الاسلاميون » وهم الملتزمون بالإسلام فكرا وحركة حول اعتبار الإسلام هو المرجع « الضمنى والمعلن » فى المشروع الحضارى ، الذى يعملون على صياغة معالمة ، كى يكون دليل العمل للنهضة الإسلامية المنشودة .. لكن هذا الذى لا يختلف عليه « الاسلاميون » هو موضع خلاف مع قطاعات مؤثرة من « المسلمين » الذين وإن تدينوا بالإسلام . عقيدة وشعائر ، إلا أنهم لا يلتزمون به مرجعا للدولة وسياسة المجتمع وتنظيم شئون العمران ، فمرجعية الإسلام للمشروع الحضارى موضع خلاف ونزاع بين « الاسلاميين » وبين بعض « المسلمين » !

ولذلك ، فإن واحدة من قضايا أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، هى قضية كيفية تعامل « الاسلاميين » مع هذا النفر من المسلمين — العلمانيين — الذين يتدينون بالإسلام لكنهم يريدونه كالمسيحية ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ ..

وبالطبع ، فإن نشأة هذا الانقسام فى العقل المسلم إلى « إسلاميين » و « علمانيين » هو امر طارئ على المسيرة التطورية للفكر الإسلامى والعقل الإسلامى ، لأنه ثمرة من الثمار المرة لهيمنة الفكر الغربى العلمانى على القطاعات النشطة والمؤثرة فى حركتنا

الفكرية ومؤسساتنا العلمية والتعليمية والإعلامية .. فلقد فرض الغزو
الفكرى الغربى على قطاعات عريضة من « النخب » المثقفة في ديار
الاسلام نمط حضارته في علاقة الدين بالدولة والاجتماع والعمران ،
فتخلق في واقعنا الفكرى قطاع «متغرب» يرى أن المرجعية في
مشروعنا النهضوى هي « للخيار الحضارى الغربى » وليس
للإسلام .. فكان هذا الانقسام ، الذى يمثل واحدة من قضايا أزمة
الفكر الإسلامى في الحياة المعاصرة .

ونريد من تعقيد هذه القضية اختلاف مواقف الإسلاميين حول
تقييم مكانة العلمانيين وموقعهم والموقف منهم؟ .. وهل هم فصيل
واحد ، فيكون الموقف منهم موقفا واحدا؟ .. ام انهم فصائل ، هم
الآخرون كفصائل الإسلاميين؟ .. ومن ثم فلا بد من تمييز
فصائلهم ، والتمييز في المواقف التى تُتخذ حيال كل فصيل ؟؟.

وإذا كان لهذه الصفحات ان تقدم لهذه القضية إشارات تسهم
في وضوح الرؤية لها ، وتسهم في تصور الحل الذى تراه موضوعيا ..
فإنها تجمل هذه الإشارات في عدد من النقاط :

أولها : أن الخلاف بين الاسلاميين وأغلب العلمانيين هو خلاف
في المشروع الحضارى ، أى حول « الدولة الإسلامية » ،
وليس حول « العقيدة » الإسلامية .. ومن ثم فإنه خلاف
في « الفروع » .. ولذلك فإن معايير الحديث فيه

والحكم على فرقائه ومقولاتهم إنما يكون بمصطلحات
« الصواب » و « الخطأ » و « النفع » و « الضرر » ،
وليس بمعايير « الإيمان » و « الكفر » و « الهداية »
و « الضلال » .

وثانيها : ضرورة التمييز في الحركة العلمانية ، سواء في نشأتها الغربية
أو في امتداداتها في بلادنا بين فصائل ثلاثة :

أ - العلمانيون الثوريون : وهم اصحاب النزعة المادية ،
التي لا تقنع بمجرد الدعوة إلى فصل الدين عن
الدولة ، وإنما تطمح إلى انتزاع الدين من العقل
والقلب والفكر والثقافة والمجتمع .. وخلاف
الإسلاميين مع هذا الفصيل العلماني هو خلاف في
« الأصول » ، وليس مجرد خلاف في « الفروع » ،
ومعايير تقيمه لا تقتض فقط عند مضامين مصطلحات
« الخطأ » و « الصواب » و « الضرر »
و « النفع » ، وإنما تتعدى هذا الإطار! ..

ب - العلمانيون الداعون ، بوعى ، لتبعيتنا ، في المرجعية
الحضارية ، للنموذج الغربي : وهم الذين لا يقف
اختيارهم للعلمانية ، وتبشيرهم بالخيار الحضارى
الغربي عند حدود « الاجتهاد الخاطيء » وإنما يقف

وراءه كيد للإسلام وحضارته ، ودعوة للبديل الغربى
باعتباره السبيل إلى إزاحة الإسلام عن طابع الحياة .

ولقد بدأ تخلق هذا الفصيل ، من فصائل العلمانية ، فى واقعنا
الحديث ، بنفر من مثقفى الطائفة المارونية بالشام ، الكارهين للإسلام
تبعاً لكراهيتهم للدولة العثمانية ، وبفعل « العمالة الحضارية » أو
السياسية التى ربطت علاقاتهم وأنشطتهم بالمد الاستعماري الغربى ،
فتبلورت دعوتهم ومؤسساتهم الصحفية والفكرية فى أحضان سلطات
الاستعمار .. منذ حركة وأفكار « الجنرال » يعقوب
(١٧٤٥ - ١٨٠١ م) إبان الحملة الفرنسية على مصر ومروراً
بـ « مدرسة » مجلة « المقتطف » (١٨٧٦ - ١٩٥٢ م) وصحيفة
« المقطم » (١٨٨٩ - ١٩٥٢ م) وأعلامها : يعقوب صروف
(١٨٥٢ - ١٩٢٧ م) وفارس نمر (١٨٥٦ - ١٩٥١ م)
وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ - ١٩١٠ م) وشبلى شمىل
(١٨٦٠ - ١٩١٧ م) وسلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨ م) ثم
لويس عوض (١٩١٤ - ١٩٩٠ م) وأمثالهم من الذين انطلقوا فى
تبني الخيار العلماني الغربى ، لا من « اجتهاد خاطيء » - ويعذر
صاحبه - بل ويؤجر رغم الخطأ وإنما من « وعى » بأن هذا هو
البديل للإسلام الذى يكرهون ، عندما لم تسعفهم مسيحتيتهم ببديل!



وهذا الفصل من فصائل العلمانيين ، وإن لم ينزع إلى المادية الملحدة ، فيكون الخلاف معه في أصول الإيمان والتدين ، إلا أنه قد اختار مواقع « العملاء الحضاريين » فالخلاف معه قائم في أصول الانتماء والهوية والمشروع الحضارى .. الأمر الذى يجعل التناقض معه تناقضا عداليا إلى حد كبير !

ج - دعاة فصل الدين عن الدولة من العلمانيين الوطنيين والقوميين : من المفكرين والساسة والأحزاب الذين انبهروا بنهضة الغرب عندما قارنوها بتخلف النموذج العثماني ، الذى حسبوه هو نموذج الاسلام .. فظنوا أن استعارة النموذج الغربى فى الحضارة هو السبيل إلى نهضة الشرق كى يتحرر من الاستعمار الغربى ، ويعود إلى الإسهام فى إثراء الحضارة الغربية ، التى حسبوها عالمية وإنسانية للبشرية جمعاء

وهذا الفصل من فصائل الحركة العلمانية ، هو الأكثر نفوذا ، والأوسع انتشارا .. وعلى الاسلاميين أن يميزوا بينه وبين الفصيلين الأولين ، مهما بدت الحدة والفجاجة والاستفزاز فى مقولات مفكرية ومثقفية ، فكثيرون من اعلام هذا الفصل ، يعودون - بدرجات متفاوتة - عن مقولات التغريب ، ويقتربون - بدرجات متفاوتة - من الرؤية الاسلامية لمشروع النهضة ، ومن تبنى الإسلام مرجعا للمشروع الحضارى .. فالدكتور محمد حسين هكيل باشا

(١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) . تراجع عن دعوته إلى
الفرعونية ، وعن دعوته إلى تبني النموذج الحضاري الغربي ، وانتقد
العلمانية بعد أن كان المدافع عنها^(١) وأحمد لطفى السيد باشا
(١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) راجع موقفه القديم
الذى كان يرفض الجامعة الاسلامية والرابطة العربية ويسوى بينهما
وبين الاستعمار^(٢) ومنصور فهمى باشا (١٣٠٣ - ١٣٧٨ هـ
١٨٨٦ - ١٩٥٩ م) تراجع عن الافتراء الذى كتبه عن صورة المرأة
بنظر الإسلام! وحتى طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ
١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) الذى حال كبرياؤه بينه وبين نقد الذات نراه
يعيد طبع سائر كتبه إلا كتابه الذى مثل عنده قمة التغريب ، وهو
كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) ! بل أن هذا الكبرياء لم يمنعه من
إعلان رأيه الجديد - والإيجابى - من الرابطة القومية العربية . وسيد
قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م) الذى كان فى
يوم من أيام مسيرته الفكرية ، داعية لإقامة أندية للعرافة فى بلادنا ،
ويومها نصح الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ
١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) بالامتناع عن مهاجمته ، لعل الله أن يهديه
وينفع به الدعوة الاسلامية! سيد قطب هذا هو الذى انتهى الى موقعه
المعروف فى الدعوة والحركة الإسلامية!

(١) [حياة محمد] ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م
[فى منزل الوحى] ص ٢٢ - ٢٦ ، ١٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
(٢) [قصة حيال] طبعة كتاب الهلال - القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

تلك إشارات ونماذج تؤكد على ضرورة التمييز بين فصائل التيار العلماني في بلاد الإسلام ، كقضية من القضايا التي تواجه الفكر الإسلامي المعاصر ، ويحتدم حولها الجدل بين الاسلاميين ..

وثالثة الإشارات : التي نقدمها حول قضية : انقسام « العقل المسلم » حول مرجعية المشروع الحضاري .. تتعلق بالموقف من أعلام اليقظة الإسلامية الذين ارادوا استلهاهم ما في الحضارة الغربية من « علم نافع » رأوه ثمرة « لأدلته » لالمنبته الجغرافي داعين إلى توظيف هذا « العلم النافع » في مشروع نهضوى إسلامي الهوية .. وهم الأعلام الذين تفاوت لديهم نضج هذا الوعي ، لكنهم وقفوا جميعا على أرض الدعوة إلى مشروع حضاري مرجعيته الإسلام .. إن الموقف من هؤلاء الأعلام هو واحد من نقاط الخلاف بين فصائل الاسلاميين ، ومن ثم فهو من قضايا أزمة الفكر الاسلامي المعاصر ..

فحول رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ)
١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسي (١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ)
١٨١٠ - ١٨٩٠ م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ)
١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) وعبد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)
وعبدالرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ومحمد إقبال (١٢٨٩ - ١٣٥٧ هـ ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م) وأمثالهم يحتدم خلاف بين الاسلاميين ! .



وإذا كان من الخطأ - بل والحرام - أن نحتزل تراثنا القديم فلا نرى فيه سوى ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وابن القيم (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) فإن الخطأ - بل والحرام - أن لا نرى في فكرنا الاسلامي المعاصر غير الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) والدكتور على سامي النشار؟ - كما يرى البعض - أو غير المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م) وسيد قطب - كما يرى آخرون؟ .

وغير هذه الفصائل التي تنقسم التأثير بل والتمزيق للعقل المسلم .. فهناك تيار التقليد والمحاكاة لموروثنا الإسلامي .. وهو تيار يغلب عليه التقليد والمحاكاة لثمرات عصر تراجعنا الحضاري وجمودنا الفكري وفقرنا في الابداع على وجه الخصوص .. الأمر الذي يجعل من « تقليده » جمودا يعجز العقل المسلم عن الخروج من « الوهدة الحضارية » ، ومن ثم « فراغا حضاريا » لا بد وأن يملأه التغريب ؟ ..

فالجهود التي يبذلها تيار « التقليد والمحاكاة للموروث » هي في حقيقتها لون من « الرفض .. السلبى » للتغريب .. رفض يقف عند نصف « فضيلة الرفض » ! .. فهو لا يقبل التغريب والاستلاب الحضاري .. لكنه عاجز عن تقديم الخيار الحضاري البديل والمنافس لخيار التغريب ، الأمر الذي يخدم التغريب ، عمليا ، عندما يترك الفراغ في العقل المسلم ليملأه الخيار التغريبي .. وهو حاضر .

وبراق .. ومدعوم بكل الإمكانيات! ..

هذا عن « الإشارات » لعالم هذا الانقسام ...

وإذا نحن شئنا أن نكشف التعبير عن طبيعة ونتيجة هذه الأزمة الفكرية في كلمات ، فإننا نستطيع أن نقول : إن جوهر هذه الأزمة : هو إسراف العقل العربي والإسلامي في المحاكاة والتقليد ، وفقره وافقاره إلى الإبداع والتجديد! ..

● فالقطاع الأكبر من مثقفي هذه الأمة ومفكرتها ، فريسة « للانقسام الحاد » .. وليس « التنوع » .. حول : هوية النفس العربية .. أهى إسلامية ؟ .. أم غربية ؟؟ . أهى ماضوية تراثية ؟ .. أم ماضوية ومعاصرة ؟؟ .. أم أن « الحداثة » - التي تقطع الصلات بالموروث - هي مذهبها وطريقها ؟؟ ..

وحتى بين التراثيين الماضويين ، هناك الانقسام الحاد حول : أى ماض وأى سلف ننطلق من ميراثه ونسترشد بآثاره ؟ .. أهو سلف عصر الازدهار ؟ .. أم سلف عصر التراجع والجمود ؟؟ .. بل إن معايير الازدهار والتراجع هي الأخرى موضع خلاف حاد بين التراثيين الماضويين ؟؟ .. أضف إلى ذلك خلافهم حول دور العقل ومقامه في التعامل مع الموروث! ..

وليس أهل المعاصرة والحداثة بأحسن حالا في هذا الموضوع .. فإذا كانوا قد اتخذوا الحضارة الغربية قبلتهم التي إليها يتوجهون ،

ومنيحهم الذى منه يغترفون .. فإن منهم من جعل « الشمولية المادية » سلفه الذى يحتذيه .. ومنهم من جعل « الليبرالية الرأسمالية » المثال الذى يبتغيه ، فتوزعتهم ، هم الآخرون ، مدارس الغرب وتياراته ومذاهبه الفكرية والاجتماعية .

بل إن هناك نحوا آخر من الخلاف قام ويقوم حول فهم معنى « المعاصرة » .. فعلى حين يفهمها البعض على أنها النموذج الحضارى الغربى .. يراها آخرون : التعامل مع العصر ، حتى ولو أثمر خيارا حضاريا متميزا عن النموذج الغربى ! ..

هكذا .. وعلى هذا النحو/ ، يعانى القطاع الأكبر من مثقفى هذه الأمة ومفكرىها من هذا « الانقسام الحاد » فى « الأصول » .. والمنطلقات .. والمقاصد والغايات ، وليس من مجرد « التنوع » فى السبل والمناهج والفروع ..

● ويزيد من مخاطر هذا الانقسام : تكافؤ - أو تقارب - قوى وأمكانات التيارات الرئيسية التى تتنازع هذه المواقف والمنطلقات والمقاصد والتوجهات - وخاصة تيارى التقليد لماضينا وسلفنا ، ولماضى وسلف ونموذج الحضارة الغربية - الأمر الذى حال ، حتى الآن ، دون حسم الجدل والاختلاف حول طبيعة « هوية النفس العربية » ، وطبيعة « مذهب ثقافتها » ..

فهذا التكافؤ - أو التقارب - بين تيار التقليد والمحاكاة للسلف - وهو الذى يجتذب وجدان العامة وافئدة الجمهور ..

وبين تيار التقليد والمحاكاة للغرب .. وهو الذى ييمن على القطاعات المؤثرة ومراكز التوجيه فى العلم والتعليم والثقيف والإعلام .. هذا التكافؤ .. أو التقارب بين « تيارى المحاكاة والتقليد » ١٢ مع ضعف تيار الإبداع والتجديد - هو الذى جعل الأمة ، ويجعلها تستنفد أغلب طاقاتها الثقافية والفكرية فى هذا « الصراع الداخلى » ، على النحو الذى جعل بأسها بينها شديدا .. فاستنزفت أغلب هذه الطاقات فى « الصراع » ، لا فى « الإبداع » .. يهدم تيار ما بينيه الآخر ، ويقتلع هذا ما يغرسه ذاك .. فكأنهما يمارسان « لعبة شد الحبل » ، فوقف فعلهما معا - بسبب تكافؤ الطاقات - عند نقطة « الصفر » لا يتعداها ١٣ ..

لقد تحصنت هذه التيارات بالتقليد ، لا بالتجديد . التقليد للتخلف الموروث أحيانا وللوافد غير الملائم أحيانا أخرى . الأمر الذى أفضى إلى انتشار أخطر أمراض أزمة الفكر الإسلامى .. مرض : الفقر فى الإبداع والتجديد ، والإخلاد إلى المحاكاة والتقليد .. وهل هناك أزمة فكرية أسوأ وأشد من توقف عقل الأمة عن الإضافة الخلاقة ، ووقوفه عند الاعتاب مستفتيا ١٤ .. يستفتى أمواتنا الحلول لمشكلات « الاحياء » ١٥ .. أو يستفتى « الآخر الحضارى » الحلول لمشكلات « الذات » ١٦

ذلك هو « الشلل » الذى يعبر عن جوهر أزمة الفكر الإسلامى ، كما يراه كاتب هذه الصفحات ..

لكن

إذا استطاعت هذه السطور التي سبقت « الإشارة » إلى جوهر الأزمة ، فإن المقام لا يستغنى عن « تفصيل » مناسب للإطار يلقي الضوء على معالم ومواقع هذه التيارات التي تتقاسم التعبير عن ثقافتنا وفكرنا والتأثير في عقل الأمة ووجدانها .. ففي ذلك بيان لأبعاد الأزمة وحجمها ، وفيه ، كذلك ، إشارات إلى طريق الخروج منها ، والانعقاد من مأزقها ..

وإذا كانت هذه ، التيارات الفكرية والثقافية قد تمثلت - إجمالاً - في :

● تيار التقليد للموروث ..

● وتيار التقليد للوافد الغرى ..

● وتيار الإحياء والتجديد ...

فإن المقام يقتضى حديثاً يوجز ويكشف معالم كل تيار من هذه التيارات ..

١ - تيار التقليد والمحاكاة للموروث :

منطلقات هذا التيار ومنابعه : هى فكر أسلافنا ، الذى تبلور في عصور التراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد .. فأهله ومؤسساته لا يعرفون كثيراً عن حقيقة المنابع الجوهرية والنقية لفكر الحضارة الإسلامية ، ولا يهتمون كثيراً بإبداع عصر الازدهار

لهذه الحضارة .. وأغلب زادهم الفكرى هو ابن لقرون التراجع
والجمود المملوكية العثمانية ..

وإذا كان هذا التيار قد ضم فصائل ثلاث :

أ - مؤسسات العلم والتعليم الموروثة .. مثل الأزهر ، وما مائله
وشابيه من المدارس والجامعات ..

ب- والطرق الصوفية .. وتنظيماتها ، ومشيخاتها المتعددة ..

ج - والنصوصيون .. الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها ،
عازلين إياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع
المبتغاة من هذه النصوص .

إذا كانت تلك هى أبرز فصائل هذا التيار .. فإننا نعرف له فضل
الحفاظ على تراثنا ، وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربى الذى أراد
اقتلاعه والحلول فى مواقعه ، الأمر الذى حفظ للأمة وثقافتها التواصل
مع ماضيها الحضارى ، ومكن لحركات الإحياء والتجديد من مادة
ومنطلق هذا الإحياء والتجديد ..

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار ..

لكن هذا التيار ، الذى جفل من « الوافد الغربى » فانكفاً على
« الذات » . قد ظل عاجزاً عن صياغة الخيار الحضارى والنموذج
التجديدى القادر على منافسة النموذج الغربى .. لا لقصور طبيعى
فى عقول أعلام هذا التيار ، وإنما لعيب فى بضاعتهم الفكرية .. فلقد
كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضارى .. أى أنها كانت عرضاً من

أعراض مرض التخلف الحضارى الذى أصاب هذه الأمة ، فآلى لها أن تكون سيلا ومادة للنهضة والإحياء؟

لقد تأملت - وأنا الذى درست فى الأزهر - وتساءلت : لماذا كانت أغلب الكتب التى ندرسها مؤلفة فى عصر التراجع وليس فى عصر الابداع الحضارى لأمتنا؟

وفى ضوء هذا التأمل ، وهذا التساؤل ، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) التى يقول فيها عن الأزهر وأبنائه فى عصره : « إنهم لا يتعلمون » فى الأزهر ، إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد ، على نهج يعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها وجل معلوماتهم : تلك الزوائد التى عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ، ولا يُرجى نفعها .. فهم أقرب للتأثر بالأوهام ، والانقياد إلى الوسوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم .. فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية! .. »^(١)

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة ، عندما سلكت طريق التطور ، أخذت « بشكل » التجديد ، لا بجوهره ، فاقتربت - فى أحيان كثيرة - من « التغريب » أكثر من اقترابها من المنابع الجوهرية والنقية للفكر الذى أبدع وميز حضارة الإسلام ..

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ١١٢ - ١١٤ . دراسة وتحقيق : د. محمد حمادة طهبة بيروت ١٩٧٢ م .

أما المؤسسات الصوفية ، فإنها - باستثناء القلة القليلة التي رحم
رئى - قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف ، كسبيل
لتهديب النفس ، وراقد يزامل العقل فى إقامة التوازن بثقافة الانسان ..

وإذا كان التيار النصوصى الحديث ، قد نفى عن عقائد الدين
كثيرا من البدع ، وعن تصورات العامة كثيرا من الخرافات ، فإن
جهوده عند حرفة ظواهر النصوص قد أورثه العجز عن إبداع
المشروع الحضارى الذى يصوغ الانسان المقاوم للزحف الغربى ..
لقد أضاف هذا التيار النصوصى حصنا جديدا منيعا إلى حصون
« الرافضين للتغريب » ، والممتنعين عن الاستلاب الحضارى .. لكن
عجزهم عن ابداع البديل المعاصر ، القادر على منافسة النموذج
الغربى والانتصار عليه ، قد هيا ذلك « الفراغ » الذى تقدم
التغريب لملئه واحتلاله ، ان فى عقول « النخبة » التى تغربت ، أو
فى واقع الأمة الذى أصبح محكوما بقوانين وفلسفات التغريب ! ..

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده ، التى وصفت الحالة
الفكرية لأبناء الأزهر - على عهده - فإن له عبارة تصف هذا
الفصيل النصوصى من فصائل تيار التقليد سموروث يقول فيها عن
أهله : إنهم « أضيق عَطْنًا^(١) وأخرج صدرا من المقلدين ! فهم ، وإن
أنكروا كثيرا من البدع ، ونمّحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه ،

(١) أى صدراً والفتأ .

وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ،
والتقيد به ، دون التفات الى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها
الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا
للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحياء! ^(١)

تلك هي أبرز فصائل هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة
للموروث .. الذي كان له فضل الحفاظ على « الذات الفكرية » ،
لكنه انكفاً على هذه « الذات » .. فكانت - في أغلبها - « ذات »
عصر التراجع الحضارى ، الأمر الذى أعجزه عن منافسة النموذج
الغربى .. نموذج فكر عصر الإحياء والثورة الصناعية فى أوربا ، ذلك
الذى جاء إلى بلادنا فى ركاب جحافل الاستعمار الغربى الحديث ..
لقد تحصن هذا التيار بالماضى ، ومن ورائه أفئدة العامة والجمهور ،
فترك الحاضر وعقول النخبة التى صنعها الاستعمار فى مؤسساته
الفكرية ، ووفق مناهجه الوضعية .. ترك كل ذلك فراغاً للاستلاب
الحضارى والتغريب .

٢ - تيار المحاكاة والتقليد للوافد الغربى - (التغريب) -

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية
عليها (١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م) فكانت بدايات فكرة الاستقلال
عن الموروث ، وقطع حبال التواصل الحضارى .. والاستقلال عن

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٣١٤ .

المحيط ، العربى الاسلامى .. واستبدال النموذج الغربى بدلا من المنابع الحضارية الاسلامية .. والوطنية القطرية بدلا من الجامعة الاسلامية ..

ولقد صاغ هذا المشروع - لاستقلال مصر عن متابعها وعن محيطها .. « المعلم يعقوب » (١٧٤٥ - ١٨٠١ م) وكان رجلا من أراذل القبط ، التحق بجيش بونايرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) وأصبح جنرالا فيه ١٩ . واستخدمه الفرنسيون جلادا للمصريين .. حتى لقد تيرأت منه الكنيسة المصرية ، وسماه الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) : « يعقوب اللعين » ١٩ (١) .

وإذا كان هذا المشروع قد قبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر (١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م) ، ومعها « المعلم يعقوب » .. فلقد عاد مشروع « الإلحاق الحضارى » ، بعد احتلال الانجليز لمصر (١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م) . عاد هذه المرة لتبشر به مؤسسات فكرية ومنابر ثقافية ، وأجهزة اعلامية ، قامت ومارست عملها بمصر ، فى رعاية سلطات الاحتلال الانجليزى ، التى كان يقودها يومئذ اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة فى الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم .

(١) د . محمد عمارة (جمال الدين الأفغانى المجرى عليه) ص ١٠ - ١٤ طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٨٤ .

ولقد كان رواد « مشروع الإلحاق الحضارى » هذا - فى هذا
 الطور من أطواره - مجموعة من المثقفين الموارنة الشوام ، الذين
 هاجروا إلى مصر فراراً من السلطة العثمانية ، والذين كانت تحركهم
 كراهية شديدة للدولة العثمانية . وبغض دفين للإسلام .. ولما كانوا
 أبناء أقلية دينية لا تملك نمطا للدولة والقانون والعمران ، مماثل
 أو مغاير لما لدى الاسلام - فمسيحتهم رسالة روحية خالصة لمملكة
 السماء ، تدع مالم يقصر لقيص وما لله لله - فلقد رأوا أن البديل
 المرشح لإزاحة الاسلام عن أن يكون صبغة النهضة للأمة ، هو بديل
 التغريب .. فوظفوا طاقاتهم والمؤسسات التى أقاموها بمصر لخدمة
 هذا المشروع .. مشروع التبشير بالتمودج الغربى نمطا لنهضة الشرق
 وتقدمه ، بدلا من التمودج الاسلامى - الذى أهالوا عليه كل
 سوءات وسيئات العثمانيين ؟!



وفى ضوء هذه الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة
 صحيفة « المقطم » (١٣٠٦ - ١٣٧١ هـ ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م)
 ومجلة « المقتطف » (١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٢ م) .. وأن نعى
 دلالات وتأثيرات الفكر الغربى الذى بشر به واشاعه أقطاب وأعلام
 هذه المدرسة وهذا التيار .. من مثل : يعقوب صروف
 (١٢٦٨ - ١٣٤٥ - ١٨٥٢ - ١٩٢٧ م) .. وفارس نمر
 (١٢٧٢ - ١٣٧٠ - ١٨٥٦ - ١٩٥١ م) وشامين مكاريوس

(١٢٦٩ - ١٣٢٨ هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠ م) .. وشبلى شميل
 (١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧ م) .. ونقولا حداد
 (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م) .. وجورجي زيدان
 (١٢٧٧ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦١ - ١٩١٤ م) .. وفرح انطون
 (١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢ م) .. وبشارة تقلا
 (١٢٦٥ - ١٣٠٩ هـ ١٨٤٩ - ١٨٩٢ م) .. وسليم تقسلا
 (١٢٦٨ - ١٣١٩ هـ ١٨٥٢ - ١٩٠١ م) وأمثالهم، فمن خلال
 هذه المؤسسات والمنابر، التي رعاها الاستعمار، تسربت عناصر
 المشروع الغربي، كبديل للمشروع الاسلامي، وتسربت « الثقافة
 الغربية » - وليس « حقائق العلم الغربي » - لتحل محل الثقافة العربية
 الإسلامية، مستفيدين من الفراغ الذي نشأ من عجز تيار التقليد
 والمحاكاة للموروث ..

وإذا شئنا كلمات معبرة - بصراحة عارية - عن مقاصد هذا
 التيار، فإننا نختار كلمات سلامة موسى (١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ
 ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م) وهو الذي مكنته « مواظنته » المصرية من
 أجل أن يكون صريحاً^{١٩} والتي يقول فيها عن ما يريده هذا التيار
 للشرق وأهله : « إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم
 على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن
 العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن في
 حاجة الى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .. وحكومة
 ديمقراطية برلمانية، كما هي في أوروبا، وأن يعاقب كل من يحاول

أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أوتوقراطية
دينية .. إننى ، كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى
أغراضى :

يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوروبا ، فإنى كلما
زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب
عنى ، وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد حبى لها وتعلقى بها ، وزاد
شعورى بأنها منى وأنا منها ، وهذا هو مذهبى الذى أعمل له طول
حياتى ، سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن
بالغرب ^(١) ١١٩٩ ..

ولم يكن هذا التيار « الكافر بالشرق ، المؤمن بالغرب » غافلا عن
مكان العربية - كلغة قومية ، وكلسان للإسلام - فى السمات
والقسمات التى تميز الحضارة الاسلامية عن الحضارة الغربية ..
ولذلك وجدنا « الوعاء اللغوى » - العربية - مثله كمثل « المضمون
الفكرى » .. الاسلام ، هدفا لسهام هذا التيار ..

فوجدنا سلامة موسى الذى رأى فى « الرابطة الشرقية سخافة »
وفى « الرابطة الدينية وقاحة » .. ودعا إلى « الخروج من آسيا »
- و « آسيا » هو التعبير الاستشراقى عن « الاسلام » ١٢ .. وأعلن

(١) سلامة موسى (اليوم والغد) طبعة القاهرة ١٩٢٧ م . والنص لى : دكتور محمد محمد
حسين (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٥ طبعة القاهرة
١٩٨٠ .

« كفرة بالشرق » و « إيمانه بالغرب »!! رأيناه يدعو إلى « لغة
عامية » تكتب « بالحرف اللاتيني » لتقطع صلات الأمة - وهي
مصر فقط بنظره - مع تراثها العربى الاسلامى ومع محيطها العربى
الاسلامى .. رأيناه يدعو إلى « اصطناع العامية لغة أدب » ، والكتابة
بالحروف اللاتينية ، لأن هذه الكتابة تضمننا إلى مجموعة الأمم
المتعدنة ، وتكسبنا عقلية المتحدنين . فالتعمق فى اللغة الفصحى
يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد .. فنظره متجه ابدا نحو
الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، مع أننا فى كثير من الأحيان
نحتاج الى الاتجاه نحو الغرب ، والثقافة تفرز الذوق والنزعة . وليس
من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق ..»

ثم يكشف سلامة موسى القناع عن أن العداء « للوعاء
اللغوى » - العربية - إنما هو فرع عن العداء « للمحتوى
الفكرى » .. - الاسلام - الذى يحويه هذا الوعاء .. فيقول عن
تراث العربية .. إنه « تراث لغوى يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن
نحاربها » .. فالعربية ليست لغة الديمقراطية والاثوميل والتلفزيون ،
بل لغة القرآن وتقاليد العرب .. (١) ١٩٢٩

(١) سلامة موسى (البلاغة العصرية واللغة العربية) طبعة - القاهرة ١٩٤٥ م - والنص
بحث للأستاذ على عقله عرسان ، عن « الفصحى والعامية والحوار المسرحى » ص ٩ - طبعة
المهرجان الوطنى للتراث والثقافة - الرياض ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م

فالإلتحاق بالغرب ، حضاريا ، والكفران بالحضارة الشرقية ..
وبلغتها العربية .. وبتراث هذه اللغة لغة القرآن .. الحاملة « لعقيدة
اجتماعية » يجب أن نحاربها « بتعبير سلامة موسى - ونرى الحرف
اللاتيني ، حرف كتابة للغة عامية ، تقطع روابط أمة الاسلام إلى أقاليم
يلتحق كل منها بالغرب الحضارى .. وتبنى المضامين الحضارية الغربية
بدلا من المضامين الاسلامية .. هى جماع معالم المشروع الذى بشر به
هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للغرب ، الذى اختار هذا الطريق
عامدا متعمدا ، وبوعى بمعالم هذا الطريق ، وبتأثيره ومقاصده ، لأن
أعلامه كانوا كارهين للإسلام كخيار حضارى لنهضة الشرق والعرب
والمسلمين ..

وإذا كانت « مدرسة المقطم » و « مدرسة المقتطف » - وهما
جناحان لتيار واحد - قد عبرا عن « التغريب - الليبرالى » فإن
السنوات التى أعقبت قيام الثورة البلشفية فى روسيا
(١٩١٧ م - ١٩٣٦ م) قد شهدت بدايات تيار « التغريب -
الشمولى » على يد طلائع « اليهود - الصهاينة - الماركسيين » ..
فعرف هذا التيار ، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من
مثل : « روزنتال » .. و « مارسيل إسرائيل » .. و « هنرى
كوريسل » .. و « أوديت » .. و « إيزاك إسرائيل » ١٩
و « وشوارتز » و « ريمون دويك » وأشباههم من شذاذ الآفاق ،
الذين انضموا إلى متغرى الموارنة ، مؤملين تحويل المسار الحضارى
للأمة عن التوجه إلى رسالة نبيها محمد بن عبد الله ، ﷺ .. وحاملين

بمنافسة أعلامها المحدثين .. من مثل جمال الدين الأفغانى
 (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) ومحمد عبده
 (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) ورشيد رضا
 (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) وعبد الله النديم
 (١٢٦١ - ١٣١٤ هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) وعبد الحميد
 بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) ومصطفى
 عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) وسعد
 زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) وحسن البنا
 (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) .. وغيرهم من الأبناء
 البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها ..

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضارى ، الذى بشر
 بثقافة الغرب اداة لإزاحة تميز الثقافة العربية الإسلامية .. والذى دعا
 إلى تبني النموذج الحضارى الغربى ، بخيره وبشره ، بحلوه ومره ،
 زاعماً أن العقل الشرقى كان ولا يزال عقلاً يونانياً ، حتى بعد أن تدن
 أهله بدين الإسلام ؟

ولقد كان الهدف - الذى أعلنه سلامة موسى - لهذا التيار هو
 إخراج الأمة من « آسيا » أى من الاسلام وحضارته ؟ .. وإلحاقها
 بالغرب ، حضارياً .. وهو ذات الهدف الذى وضع بذرتة الأولى
 « يعقوب اللعين » ؟



٣ - تيار الإحياء والتجديد :

في تيار الإحياء والتجديد لثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامي - وهو تيار عريض - وبه هو الآخر فصائل متميزة ، إن في ميادين اهتماماتها . أو في حظها من التجديد ، أو في مقاييس التجديد لديها - في هذا التيار ، نستطيع ان نرصد أسماء عشرات من العلماء الأعلام .. لكننا نشير إلى بعض من أبرز قادة هذا التيار .. من مثل : رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسي (١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ - ١٨١٠ - ١٨٩٠ م) وجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) والإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) وعبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤ هـ - ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) وعبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) وحسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م) ومصطفى كامل باشا (١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ - ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) وطلعت حرب (١٢٩٣ - ١٣٦٠ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٤١ م) وسعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ - ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) ومصطفى عبد الزارق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) ومحمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ - ١٨٨١ - ١٩٤٥ م) وعبد العزيز

جاويش (١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٢٩ م) وأحمد حسن
الزيات (١٣٠٢ - ١٣٨٨ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٦٨ م) وعبد الجليل
(١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ - ١٨٩١ - ١٩٧٨ م) وعبد الوهاب خلاف
(١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ - ١٩٨٨ - ١٩٥٦ م) ومحمد حسين هيكل
(١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ - ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) وعباس محمود العقاد
(١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٩ - ١٩٦٤ م) وعبد الحميد بن باديس
(١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) ومحمد الفاضل
بن عاشور (١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ - ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م) وعلال
الفاسي (١٣٢٦ - ١٣٩٤ هـ - ١٩٠٨ - ١٩٧٤ م) وعلى مبارك
(١٢٣٩ - ١٣١١ هـ - ١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) وقاسم امين
(١٢٨٠ - ١٣٢٦ هـ - ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م) وزكى مبارك
(١٣٠٨ - ١٣٧١ هـ - ١٨٩١ - ١٩٥٢ م) وشكيب أرسلان
(١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م) وغيرهم .. وغيرهم
من أعلام هذا التيار ...

وإذا كان تراث حقبة الجمود والتراجع في حضارتنا العربية
الاسلامية ، قد كان بضاعة تيار التقليد للموروث .. وإذا كان النموذج
الحضارى الغربى قد مثل منابع ومنطلقات تيار التغريب .. فإن المنابع
التي انطلق منها تيار الإحياء والتجديد قد تمثلت في :

- مبادئ الإسلام ، كما تمثلت في منابعه الجوهرية والنقية : البلاغ
القرآنى ، والبيان النبوى للقرآن الكريم ، كما تمثل في السنة النبوية
الثابتة .

● وثوابت التراث العربى الاسلامى ، التى مثلت قسما ت الهوية الحضارية للأمة ، والتى حفظت لأجيالها تواصلها الحضارى ووحدةها كأمة ، عبر الزمان والمكان .

● وكل ما أبدعه العقل الإنسانى ، فى مختلف الحضارات ، مما هو « ابن الدليل » كما تمثل فى الحقائق والقوانين التى مثلت وتمثل العلوم التى لا تتغير موضوعاتها بتغير الحضارات والمعتقدات .. أى العلوم الموضوعية المحايدة ، التى هى « مشترك إنسانى عام » متميز عن « العلوم الانسانية » .. ومنها الثقافة .. التى تدخل فى الخصوصيات التى تميز فيها الحضارات ..

تلك كانت المنابع الفكرية لتيار الإحياء والتجديد ..

وإذا نحن شئنا أن تكون إشاراتنا لأهم الملامح الفكرية لمشروع الإحياء والتجديد الذى صاغه هذا التيار ، وبشّر به ، ودعا إليه .. وإذا شئنا أن تكون إشاراتنا هذه موثقة وصادقة فى التعبير عن حقيقة ملامح هذا المشروع .. فإننا نستطيع أن نتحدث بلسان أعلامه ، فنقول إنهم قد أرادوا مشروعاً تجديدياً لا يقيم قطيعة مع التراث ، وإنما يتجاوز المتخلف منه ، ذلك الذى تجاوزه التطور .. ولا يقيم قطيعة مع الحضارات الأخرى ، وإنما يميز فى عطاياها بين « المشترك الإنسانى العام » وبين « الخصوصيات » التى تتميز بها تلك الحضارات .. ولا يدير ظهره للواقع - حاضراً ومستقبلاً - فيهجره

إلى الماضي - كما فعل تيار التقليد للموروث - أو إلى « الآخر الحضارى » - كما فعل تيار التغريب - وإنما أراد هذا التيار استلهاً للموروث ، والاستعانة بالوافد الملائم ، كمنطلقات لإبداع جديد للواقع العربى الإسلامى الجديد .. فالإبداع هو الهدف والأساس والسبيل إلى الإحياء والتجديد ، فى مذهب أعلام هذا التيار ..

● وإذا كان الإمام محمد عبده - وهو المهندس الأعظم لفكر هذا التيار - قد حدد أهدافه العامة .. فإننا واجدوها : الإحياء والتجديد فى ثلاثة ميادين :

« الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينبعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى . وأنه - أى الدين على هذا الوجه - يعد صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل - كل هذا أعده أمراً واحداً - ..

أما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان فى الخطابات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجماً من لغات أخرى ، أو فى المراسلات بين الناس ..

أما الأمر الثالث : فهو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. فالحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ولا يردونه عن خطئهم ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصيح الأمة له بالقول والفعل ... »

وإذا كان الامام محمد عبده قد حدد ، في هذه الكلمات ، ميادين الإحياء والتجديد .. فإنه قد نبه على تميز هذا التيار ، عندما استطرد فقال : ولقد خالفنا في الدعوة إلى ذلك « رأى الفقتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

أ - طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ..

ب - وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو في ناحيتهم .. » (١)

تلك هي ميادين الإحياء التي عمل فيها تيار التجديد ، المتميز عن تيار التقليد والتغريب .. وإذا كانت قد سبقت إشارتنا إلى نقد الامام محمد عبده لجناحي تيار التقليد للموروث - أبناء المؤسسات التعليمية الموروثة .. والنصوصيين - فإن الأفغانى يؤكد تميز هذا التيار عن تيار التغريب ، بحديثه عن الموقف من « علوم » الغرب ، ومن « ثقافة » الغرب ، وذلك عندما يعرض لما صنعه العثمانيون والمصريون في « التحديث على النمط الغربى » ! .. فيقول : « لقد شيد العثمانيون

(١) [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني !..

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟!..

نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ « الحرية » و« الوطنية » و« الجنسية » وما شاكلها .. وسموا أنفسهم : « زعماء الحرية » .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات ، المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم !.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم :.. وهذا جد غ للأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها !

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يشتون أقدامهم !..

إن أبا العلم وأمه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ، ولا جاليليو بالذات .. والحقيقة تلمس حيث يوجد الدليل ...

وإن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولا ضرورة في إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرق في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا (١) أعجزها وأعوزها ! .. » (٢) .

● ويزيد مصطفى كامل باشا موقف هذا التيار من « الهوية » الحضارية وضوحا وتحديدا ، عندما يحدد علاقة « الوطنية » بـ « الجامعة الإسلامية » وعلاقة حضارتنا بالحضارة الغربية .. فيقول : « إننا نريد أن تكون مصر للمصريين ، ونرفض قطعيا كل نير أجنبي .. »

وإذا كما نطلب إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات ، التي راجت بين العامة ، باسم الدين ، قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهل والتأخر والانحطاط ، وكل الآفات ، مما يلقي على الدين وينسب إليه ، والدين منه براء . لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل إلى إبادة جيش الباطل ، الذي أُلّف ونظم باسم

(١) أي أذهبا وصدعها ..

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٥٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

الدين ، إلا بالدين نفسه . فالتعليم الديني ليس فرضاً من الوجهة الدينية « فحسب ، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية .

إن بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموحدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا ثفرة مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته ، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم ...

ونحن إذا اعتمدنا على الاسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .. (١) »

فتقليد الغرب شيء .. والأخذ من المدنية الغربية الفوائد والمنافع شيء آخر .. و« إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية مستحيل ... »

● ويزيد الإمام محمد عبده هذه الحقيقة .. حقيقة ضرورة « إسلامية النهضة والإحياء والإصلاح » .. ويزيدها حسماً وتأكيذاً ، عندما يقول : « إن الدين هو سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين

(١) مصطفى كامل : فقرات من خطبة في الاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م .. وخطبة في الاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م .. وخطبة في ذكرى تنصيب محمد علي باشا حاكماً على مصر - في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م .. انظر كتابنا [الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] ص ٨٧ ، ٩٥ - ٩٧ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صيغة الدين يخرج المصلح إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا ..

وإذا كان الدين كافلا بهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله الثقة فيه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إمام به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟! .. (١)

● لكن محورية الإسلام في النهضة والإصلاح لدى هذا التيار - تيار الإحياء والتجديد - قد جاءت موقفا متميزا عن موقف المقلدين للموروث ، أولئك الذين وقفوا عند تراث عصور التراجع والتخلف الحضارى .. وعن موقف النصوصيين ، أولئك الذين وإن كانوا قد طهروا العقائد من البدع والخرافات ، إلا أن جمودهم عند حرفية النص قد جعلهم يهملون أعمال العقل في الوعي بمرامي النصوص وملابساتها ، ومقاصد الشريعة وحكمتها وغاياتها ..

ففى منهج تيار الإحياء والتجديد نجد « العقل : هو جوهر إنسانية الإنسان .. وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة » (٢) .. وهو نقطة الافتراق التى ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات .. والتى جعلها الله محور صلاحه وفلاحه .. (٣)

(١) [الأعمال الكاملة] ج ١ ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق . ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

وإذا كانت « الحكمة » : ثمرة من ثمرات العقل ، لأنها هي الإصابة في غير النبوة .. فإنها - أى الحكمة - في منهج هذا التيار : « هي مقننة القوانين ، وموضحة السبل ، وواضحة جميع النظمات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والردائل ، وبالجملة ، نهى : قوام الكمالات العقلية والخلقية .. فهي أشرف الصناعات .. » (١)

● وليس مقام العقل هذا - في منهج هذا التيار - خاصا بالعمران الدنيوي وحده .. بل إن هذا هو مقامه وتلك هي مكانته في تحصيل الايمان الدينى أيضا ١٩ .. فإذا كان العقل هو أداة النظر والتدبر والتفكر .. وإذا كان الايمان هو التصديق القلبي الذى يبلغ مرتبة اليقين ، فإنه « لا يقين مع التخرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان ، طولها وعرضها ، وحتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد .. فالله يخاطب ، فى كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولاحد .. والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا ، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات ..

والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم .. فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أبحاثها ، ونشر ما انطوى فى أبحاثها .. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر

(١) المصدر السابق . ص ٢٦٠ .

الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق
للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك
بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ...

والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع
به .. فمن رى على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحا ، بغير
فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان
للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه : أن يرتقى عقله ،
وتتركى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه
أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته
ودرجة مضركه فى دينه ودنياه ... » (١)

● وفى الوقت الذى استعار فيه تيار التغريب مفهوم « الوطنية »
الضيقة ، المناقض لوحدة الأمة الاسلامية ، ووحدة ديار الإسلام ..
وجاهر أعلام هذا التيار - بلسان أحمد لطفى السيد باشا [١٢٨٩ -
١٣٨٣ هـ - ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م] - بأن « الجامعة الاسلامية
خرافة .. لا أثر لها ولا وجود .. وأن القول بأن أرض الإسلام
وطن لكل المسلمين : قاعدة استعمارية تتفح بها كل أمة مستعمرة
تطمع فى توسيع املاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ١٥١ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ج ٤
ص ٤١٤ .

البلاد .. وأن المصري : هو الذى لا يعرف له وطنا غير مصر .. !! (١)

وهو المفهوم الذى يبرر التجزئة الاستعمارية الغربية لوطن العربيه وعالم الاسلام ... فإن تيار الإحياء والتجديد - الذى بعث الوطنية - كدائرة انتماء - على يدى مصطفى كامل باشا - قد نبه على خطر هذا المفهوم الغربى والضيق للوطنية ، خطره على وحدة الأمة الإسلامية .. فكتب الإمام محمد عبده يقول : « لقد انحلت الروابط المالية ، بل تقطع أكثرها ، حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الأعمال المشتركة التى تحفظ وحدتها . وطلق بعض هؤلاء « المتمدنين » الذين قطعوا روابطهم بأيديهم يفكرون فى جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلا من الرابطة المالية الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة ، فلم يفلحوا ، ولكن أثر كلامهم أودأ التأثير .. » (٢)

● وبينما رأى تيار التغريب - بسبب التقليد لمناهج الغرب - فى إسلامنا : مسيحية ، تدع مالمقيصر لقيصر ، وما لله لله .. وفى الخلافة الإسلامية : دولة الكهانة التى استبدت باسم السماء والتفويض الالهى والسلطة الدينية .. تبه تيار الإحياء والتجديد على تميز الإسلام فى هذا

(١) أحمد لطفى السيد [قصة حياتى] ص ٦٧ ، ٧٠ ، ١٣٤ ، ١٣٣ . طبعة القاهرة - دار الهلال - سنة ١٩٨٢ م .

(٢) [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٦٨٣ .

الميدان .. ميدان علاقة الدين بالدولة .. « فليس في الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة .. وهى سلطة خولها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم .. وليس للخليفة ، أو القاضى ، أو المفتى ، أو شيخ الاسلام أية سلطة دينية .. بل إن كل سلطة تناوها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية ! .. فليس في الاسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه ... » (١)

لكن رفض الاسلام هذا للسلطة الدينية ، ليس هو موقف المسيحية التى تقف عند حدود الرسالة الروحية ، وخلاص النفوس ، ومملكة السماء .. وليس العلمانية الغربية التى تفصل الدين وتعزل أحكامه عن الدولة والعمران وعلومهما وشؤونهما .. لأن الإسلام دين ودولة .. بلاغ وتنفيذ .. وبعبارة الإمام محمد عبده ، أيضا : « فإن الاسلام : دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا .. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير ، فلا بد أن تكون فى واحد ، وهو السلطان أو الخليفة ... وليس من أصول الإسلام أن يدع مالم يقصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده وعمله .. فكان الدين بذلك عند

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

أهله : كلاً للشخص ، وألقاً في البيت ، ونظاماً للملك .. » (١)

فتحن هنا ، في فكر هذا التيار ، أمام مشروع للإحياء والنهضة والتجديد ، يدعو أعلامه إلى : « سلفية – عقلانية – مستيرة » في فهم الدين ، على النحو الذي فهمه منه « الجيل المؤسس » – جيل الصحابة والتابعين – قبل ظهور الخلاف الذي أفضلته المؤثرات الأجنبية ..

● وإلى « عقلانية – إسلامية » متميزة عن عقلانية الغرب – اليونانية .. والحديثة .. عقلانية تقرأ النقل في ضوء العقل ، وتضبط العقل بالنقل فيما لا يستقل بإدراكه .. وتؤسس الإيمان الديني على النظر العقلي ، فتقلد الإنسان من التصورية التي لا عقل لأهلها .. ومن الوضعية التي لا تؤمن إلا بشمرات الحواس والمحسوس ..

● وإلى تأسيس النهضة على الإسلام .. وعلى ثمرات إبداع الحضارات الأخرى فيما هو مشترك إنساني عام ، في ميادين العلوم التي حقائقها وقوانينها موضوعية محايدة ، لا تتأثر بتغاير العقائد والحضارات ، لأنها ابنة الدليل ، تلتمس حيث يوجد الدليل ..

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

● وإلى بحث الروح الوطنية ، والروابط القومية ، كليات ودوائر
انتفاء في البناء الأعم والأشمل ، الذى هو وحدة الأمة والملة في
المصالح والحضارة والاعتقاد ..

● وإلى شمولية الإسلام - بالوسطية - مختلف جوانب الحياة
الانسانية والعمران البشرى .. الدين والدولة .. الفرد والطبقة
والأمة .. الوطنية والقومية والجامعة الاسلامية والانسانية .. الروح
والجسد .. الدنيا والآخرة .. الخ .. الخ .. على النحو الذى يعصم
نهضة الأمة ومشروعها الحضارى من الانشطارية والثنائية التى
مزقت وتمزق العقل الغربى حيال هذه الثنائيات ..



تلك هى أبرز ملامح مشروع الإحياء والتجديد ، الذى دعا إليه ،
وجاهد في سبيل تطبيقه ، هذا التيار ...

وإذا كان « العقد - المنظم » لهذا التيار قد انفرط بعد « الحزب
لوطنى الحر » « وجمعية العروة الوثقى » - وهما التنظيمان اللذان قادهما
جمال الدين الأفغانى .. وانفرط عقدهما بوفاته - فإن أعلام هذا التيار
قد أقاموا العديد من التنظيمات .. والمؤسسات .. والمنابر الفكرية ..
وأسهموا في الإحياء والتجديد بمختلف السبل والوسائل .. فمن « دار
العلوم » .. إلى « مدرسة القضاء الشرعى » .. إلى تيار مجلة
« المنار » .. إلى جمعية « أم القرى » .. إلى « جماعة العلماء
الجزائريين » .. إلى العديد من الأحزاب .. والصحف ..

والمجلات .. ودور النشر .. والجامعات .. والكتب .. التي مثلت القنوات التي عبرت منها معالم هذا المشروع الحضارى إلى عقول قطاع واسع وأفئدة جمهور عريض من أبناء هذه الأمة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ..

صنع هذا التيار ذلك ، رغم الحصار والتضييق اللذين قرضا عليه من تيارى التقليد والمحاكاة .. التقليد للموروث .. والمحاكاة للتغريب ! ..

● فبعد الله النديم : يرفع راية الدفاع عن العربية .. ووحدة الأمة .. وتميز تقاليدھا .. فى مواجهة الذين انطلقوا .. بعد الهزيمة العسكرية لجيش الثورة العربية يقلدون الغزاة المنتصرين ! ..

● وقاسم أمين : يدافع - فى [الرد على داركور] - عن تميز التمدن الاسلامى عن التمدن الغربى .. ويضبط - فى [تحرير المرأة] - حريتها بالضوابط الاسلامية - وذلك قبل أن يميل - فى [المرأة الجديدة] - إلى قدر من التغريب ..

● وسعد زغلول : الذى قاد ثورة من أعظم ثوراتنا الوطنية فى العصر الحديث - يرفض العلمانية الغربية ، ويتعجب من « جهل » الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] الذى زعم فى كتابه [الاسلام واصول الحكم] أن الاسلام « رسالة بروحية » لا علاقة له بسياسة الدولة وال عمران .. فيكتب قائلاً : لقد قرأت كتاب الاسلام واصول الحكم بإمعان ،

لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب . فعجبت ،
أولا ، كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا
الموضوع ؟ ..

لقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن
منهم في الاسلام حجة كهذه الحجة في التعبير ، على نحو ما كتب
الشيخ علي عبد الرازق ..

لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياته ،
والا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا ؟ ولا هو بنظام يصلح
للحكم ؟ ..

فأية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام ؟ هل البيع ؟
أو الإجارة ؟ أو الهبة ؟ أو أى نوع آخر من المعاملات ؟ ..

ألم يدرس شيئا من هذا في الأزهر ؟ أو لم يقرأ أن أمما كثيرة
حكمت بقواعد الإسلام فقط عهدا طويلة كانت أنصر العصور ؟
وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد ، وهي آمنة مطمئنة ؟ فكيف
لا يكون الإسلام مدنيا ودين تحكم ؟

وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة !. فأين كان
هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ؟ .. والذي يؤلمني حقا ،
أن كثيرا من الشبان الذين لم تقو مداركهم في العلم القومي ،
والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد ،

سيتحيزون لثل هذه الأفكار ، خطأ كانت أوصواها ، دون تمحيص
ولادرس ، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة
(السياسة) وأمثالها من النشء العظيم على الشيخ عبد الرازق ،
ومن تسميتها له بالعالم المدقق ، والمصلح الإسلامى ، والأستاذ
الكبير .. الخ ...

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين
قواعد الاسلام الراسخة ، التى تصدى كتابه لهدمها ! .. (١)

لقد كتب سعد زغلول هذا الكلام فى ٢٠ أغسطس سنة
١٩٢٥ م - أى قبل وفاته بعامين - فأثبت به وفيه أنه قد ظل طوال
حياته الفكرية الإبن البار لتيار الإحياء والتجديد ، والتلميذ الوفى
لفكر جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ..

● أما الشيخ مصطفى عبد الرازق : فإنه ينهض بعبء التأسيس
لذلك التحول الذى أحدثه هذا التيار فى حقل الدراسات الفلسفية ،
وذلك عندما يقدم فى كتابه [تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية] نظرية
تميز الفلسفة الإسلامية عن فلسفات الأمم الأخرى .. وكيف أن
عقلانية الأمة الإسلامية قد تجلت فيما أبدعه المسلمون فى « أصول
الدين » فأرسى بذلك معلماً من معالم التميز للمشروع الحضارى الذى
أبدعه تيار الإحياء والتجديد .

(١) محمد ابراهيم الجزيرى [سعد زغلول : ذكريات تاريخية] ص ٩١ - ٩٢ . طبعة كتاب
اليوم - القاهرة . وانظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ص ١٤٩ - ١٥١ . طبعة
دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

● أما رشيد رضا : فهو الذى حفظ الاستمرارية لفكر هذا التيار . قرابة أربعة عقود .. تحول فيها [تفسير المنار] إلى معلم جديد لمنهج جديد فى تفسير القرآن الكريم .. وغدت فيها مجلة [المنار] منارة التجديد والإحياء على امتداد عالم الإسلام ..

● وكان الخضر حسين : فارس المعارك الفكرية لهذا التيار ضد المتغربين - وخاصة فى كتابيه : [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] و [نقض كتاب فى الشعر الجاهلى] .. كما كان فارس التجديد بما كتبه فى الشريعة .. واللغة .. وسبل الإصلاح .. وفارس الجهاد الوطنى ، بالمركز الذى أقامه - بالقاهرة - لدعوات وحركات التحرير الوطنى الإسلامية ، خاصة فى بلاد الشمال الأفريقى ..

● أما حسن البنا : فإنه الإمام الذى انتقل بمشروع النهضة هذا من إطار الصفوة المثقفة والنخبة المفكرة إلى أحضان الأمة ، وأيدى الجماهير .. فلقد جاء فى حقبة عمت فيها بلوى الاحتلال الأجنبى ، والتشرذم القطرى ، والهيمنة التغريبية كل أنحاء ديار الإسلام .. فكان لابد من أن تحمل الأمة - وليس فقط علماءها - مسئولية التربية والإعداد والاستعداد لمواجهة التخلف الموروث والاستلاب الحضارى بهذا المشروع الحضارى الجديد .. مشروع الإحياء والتجديد .. فقدم الرجل فى هذا الميدان أعظم ما يمكن أن يقدمه مجدد مجاهد استشهد وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا بستوات ثلاث !؟ ...

تلك إشارات إلى طرف من معالم المشروع الحضارى لتيار الإحياء
والتجديد .. ونماذج من مواقع نقر من أعلامه .. آثرنا فيها التمثيل ..
فلم نخرج على ابن باديس .. والنهضة التى أعاد بها الجزائر إلى العروبة
والاسلام .. ولا على الكواكبي .. وإنجازاته فى الحرية ، والعروبة ،
ومعالجة اسباب التخلف ووسائل النهوض .. فالحديث عن هذا التيار
حديث « مجلدات » لا « سطور » فى صفحات ١ .. (١)

(١) انظر كتبنا : [مسلمون لوأر] و [الإمام محمد عبده] و [رجال الأندلس] و [رفاعة
الطهطاوى] و [عبد الرحمن الكواكبي] و [على مبارك] و [قاسم أمين] و [تيارات الفكر
الاسلامى] و [الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى] . طبعة دار الشروق . القاهرة .

و .. من التغريب إلى التجديد :

ورغم الإمكانيات الهائلة التي سخرتها السلطات الاستعمارية لدعم تيار التغريب ورعاية مسيرته ، والتي وضعت أغلب مؤسسات التعليم والثقيف والإعلام تحت هيمنة نظرياته ورجالاته .. ورغم الحصار الذى ووجه به تيار الإحياء والتجديد من أهل الجمود والتقليد ومن المتغربين جميعا .. إلا أن الواقع الفكرى الثقافى - بسبب الحاجة الحضارية للمشروع التجديدى - وبسبب إفلاس أهل التقليد وسمجهم عن تقديم المشروع الحضارى الذى ينير للأمة طريق النهضة والتحرر .. وبسبب فجاجة الرؤى المتغربة والرفض التلقائى والطبيعى الذى تقابل به من عقل الأمة ووجدانها ، اللذين لم تفسد فطرتها بسبب من هذه العوامل ، وغيرها ، تخلقت فى الواقع الثقافى ظاهرة هامة وذات دلالة وملفئة للأنظار .. ألا وهى : تراجع عدد كبير من الاعلام الذين تغربوا عن التبشير بالتمودج الحضارى الغربى ، بعد أن سلكوا هذا السيل ، كاجتهاد خاطيء ، وانخراطهم ، فى مرحلة نضجهم الفكرى ، بتيار الإحياء والتجديد ..

وهذه الظاهرة - التى لا تزال قائمة ومستمرة - والتي شملت وتشمل العديد من الذين سلكوا طريق التغريب - بشقيه : الليبرالى والشمولى - تقوم شاهدة على حقيقة تعلمنا بضرورة التمييز فى الذين دعوا ويدعون إلى تبني التمودج الحضارى الغربى ، بخيره وشره ، بخلوه وهره ، بخطئه وصوابه ، بإنسانياته وخصوصياته وبعلمه والموضوعية

والخبايدة ... تعلمنا ضرورة التمييز في هذا الموكب بين الذين تغربوا
عمالة - فكرية - للغرب الاستعماري ، بسبب كراهيتهم
للإسلام ، وسعيهم الواعي والمخطط لإزاحة صبغته عن مشروع النهضة
وفلسفة الحاكم والعمران ، وبين الذين تغربوا بسبب اجتهداهم الخطأىء ،
الذى دفعهم الى الظن بان استعارة النموذج الغربى هو السبيل الى القوة
والنهضة التى تحرر أوطاننا من اغلال الاستعمار والهيمنة الغربية .. لقد
رأوا الاسلام فى الصورة التى قدمها له تيار الجمود والتقليد ، فأيقنوا
بعجز هذه الصورة عن أن تكون السبيل للتحرر من الهيمنة الغربية ،
وعندما وازنوا بين هذه الصورة وبين النموذج الغربى ، بهرهم الغرب
وأدهشتهم إنجازاته .. وخذعوا بزعم الغرب وحدة الحضارة ،
فحسبوا أن الحضار والتقدم لا يقتضى مشروعا حضاريا متميزا ،
وإنما يقتضى اللحاق بالغرب ، والاشتراك معه فى حضارته ، التى
صدقوا أنها الحضارة « الانسانية » و« العالمية » .. فكان أن اعلنوا
بلسان واحد من أعلامهم - : « أن السبيل .. واضحة بينة مستقيمة
ليس فيها عوج ولا التواء ، وهى واحدة قلدة ليس لها تعدد ، وهى :
أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون
لهم شركاء فى الحضارة خيرا وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُحب
منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب » ! (١)

لكن عددا من هؤلاء الأعلام ، الذين قادهم الاجتهاد الخطأىء

(١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة فى مصر] . ج ١ ص ٤٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م

إلى هذا الموقع الفكرى ، قد أدركوا ، بالتجربة ، أن « بذور التغريب » غير صالحة للإنبات فى « تربتنا الحضارية » وأن « فطرة الأمة » ، التى كونها تراثها المتميز وتاريخها الحضارى المغاير لنظيره الغربى ، إنما ترفض التغريب رفض الجسد للجسم المقحم عليه والغريب عنه .. فلما نظروا صورة الاسلام ، كما عرضها تيار الإحياء والتجديد ، وجدوا ضالتهم المنشودة فيه ، فكانت عودتهم عن التغريب إلى الإحياء والتجديد ..

وإذا نحن شئنا استقصاء الأعلام الذين كونوا هذه الظاهرة ، طال بنا الحديث ، ونخرج عن ما يقتضيه المقام .. ولذلك فإننا سنقف هنا عند الإشارة إلى نماذج ثلاثة ، علا نجمهم فى التيار المتغرب .. ثم راجعوا فكرهم ومواقفهم ، فكانت عودتهم - الصريحة أو الضمنية - المصحوبة بالنقد الشجاع للمسيرة الماضية .. والخالية من هذا النقد الشجاع - .. كانت عودتهم عن طريق التغريب إلى تيار الإحياء والتجديد ..

● قال الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] : قد خرج على الناس فى سنة ١٩٢٥ م بكتابه [الاسلام وأصول الحكم] .. فأثار أكبر معركة فكرية فى تاريخنا الحديث .. وغدا كتابه هذا أهم « وثيقة » فى يد « العلمانيين » الذين يريدون للشرق أن يعزل الاسلام عن الدولة والمجتمع كما عزل الغرب المسيحية عنهما ..

ففى هذا الكتاب يقول عالم أزهرى ، وقاض شرعى - لأول مرة
فى تاريخ العلم الاسلامى والعلماء المسلمين - إن الاسلام دين ورسالة
روحية ، لا دولة فيه ولا سياسة .. وإن الخلافة الاسلامية كانت -

كالكهانة الغربية - استبداداً وطغياناً باسم الدين .. وإن نبى
الاسلام ﷺ ، لم ينشئ دولة ولم يقيم حكومة ، ولم يصنع
إلا ماصنعه الرسل السابقون : البلاغ ، المجرد عن التنفيذ ..
فعنده : أن محمداً ، ﷺ ، ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة
للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ، ﷺ ، لم يقم
بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة
ومرادفاتها . ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل ،
وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً إلى ملك .. وظواهر
القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى ، ﷺ ، لم يكن له شأن فى
الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز
حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان .. إنما كانت ولاية
محمد ، ﷺ ، على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من
الحكم .

هيات هيات ، لم يكن ثمة حكومة ، ولا دولة ، ولا شيء من
نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء .. لم يكن هناك ترتيب
حكومى ، ولم يكن ثمة ولاية ولا قضاة ولا ديوان الخ .. كانت
زعامة دينية .. ويا بعد ما بين السياسة والدين .. (١)

(١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ - ٨٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

لكن هذا الشيخ ، الذى استفز الضمير المسلم كما لم يستفزہ عالم ديني عبر التاريخ .. والذى افترى على الاسلام ورسوله فرية لم يفترها مستشرق حاقد أو جاهل ... سرعان ما عاد - بالتدريج ، ودون إعلان صريح - إلى العدول عن فرية أن الاسلام مجرد رسالة روحية لا دولة فيها ولا سياسة ولا حكم ولا تنفيذ .. فأجاب - بعد أن حاكمته وأدانتہ « هيئة كبار العلماء » - وبعد أن قند زعمه ونقض دعواه عدد كبير من أعلام العلماء - أجاب على سؤال الجماعة من العلماء ، فقال : « إن الاسلام دين تشريعي ، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده ، وإن الله خاطبهم جميعا بذلك » (١) .. وذلك بعد أن كان قد زعم في كتابه أن الواجب هو إقامة أية حكومة : بلشفية أو رأسمالية ، ديمقراطية أو استبدادية ! ..

وفي مرحلة تالية من مسيرته الفكرية - سنة ١٩٥١ م - دار حوار بينه

وبين الدكتور أحمد أمين [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م] حول دواء ما وصل إليه المسلمون من جمود ، فقال في هذا الحوار : « إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل الخ .. »

(١) صحيفة [السيامة] - البرية - العدد ٨٨٩ بتاريخ ١ - ٩ - ١٩٢٥ م .

فلما نشر أحمد أمين ذلك - في مجلة [رسالة الإسلام] (١) -
علق على عبد الرازق على هذه العبارة - عبارة : « إن رسالة الإسلام
روحانية فقط / - فقال : « ما أرى إلا أن هناك خطأ في التعبير
جوى به لسأى في المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال
المسلمين .

وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسأى ..
يومئذ ، ولم أرد معناها ، ولم يكن يخطر لي ببال ! ..

بل لعله الشيطان ألقى في حديثى بتلك الكلمة ليعيدها
جدعة (٢) تلك الملاحمة التى كانت حول كتاب « الاسلام وأصول
الحكم » .. وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على السنة بعض
الناس .. « ١٩ » (٣)

هكذا تراجع على عبد الرازق عن « البدعة » التى لم يسبقه إليها
عالم من علماء الاسلام .. بدعة « علمنة الاسلام » .. وبقي أن
يعنى ذلك تيار التغريب ، الذى يتمسك حتى الآن برأى تراجع
عنه صاحبه ، ويلعب بورقة سحبها صاحبها منذ عشرات السنين : ..

● أما الدكتور طه حسين : [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ - ١٨٨٩ -

١٩٧٣ م] : فلعل أشد آرائه المتغربة استفزازا للعقل المسلم كانت
تلك التى حوتها صفحات من كتابيه [فى الشعر الجاهلى] - الذى

(١) عدد ابريل سنة ١٩٥١ م . (٢) جدعة : أى جفيدة .. مرة أخرى .

(٣) انظر مقاله فى مجلة [رسالة الاسلام] - عدد مايو سنة ١٩٥١ م .

صدر سنة ١٩٢٦ م - [مستقبل الثقافة في مصر] - الذى صدر
سنة ١٩٣٨ م ..

فهو فى الكتاب الأول - [فى الشعر الجاهلى] - يعرض لقضية
من قضايا النقد الأدبى - قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى - وهى
قضية تكلم فيها قدماء ومحدثون ، عرب ومستعربون .. ولا علاقة
للخلاف حولها بمقدسات الدين وعقائد الإسلام ..

لكنه - فى هذا الكتاب - بعد أن تحدث عن افتقار أغلب الشعر
الجاهلى إلى الصدق - صدق الثبوت - الذى يجعله المصدر الثقة فى
وصف وتصوير الحياة الجاهلية ، تحدث عن القرآن الكريم حديثاً طيباً
قال فيه : « إن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى . ونص القرآن
ثابت لا سبيل الى الشك فيه »^(١) لكنه قد عاد فجمع به الفكر
واشتط منه القلم عندما سطر نحو من ثمانية وعشرين سطراً ، رفض
فيها تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول :

أ - علاقة الإسلام بملة إبراهيم ، عليه السلام .. والحنيفية والحنفاء ..
ب - وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل ،
عليهما السلام ..

ج - وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم ، عليه السلام ..^(٢)

(١) [فى الشعر الجاهلى] ص ١٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

(٢) المرجع السابق . ص ٨٠ ، ٨١ .

وبعد الضجة الكبرى التى أثارتها هذه السطور ، التى تشكك فى القرآن ، بعد أن قال كاتبها - وفى ذات الكتاب - : « إن نصّه ثابت لا سبيل الى الشك فيه » .. وبعد التقد والنقض والتفنيد الذى وجه إلى هذا الرأى تحديدا ... حذف الدكتور طه هذه السطور من كتابه ، وأعاد النظر فيه ، بالإضافة والتوثيق والضبط والتصحيح ، وأعاد نشره تحت عنوان جديد - [فى الأدب الجاهلى] - ..

فإذا علمنا أن الكتاب ، فى صورته الأولى ، لم يصادر .. وأن النيابة العامة قد حفظت التحقيق مع المؤلف ، دون توجيه أى اتهام إليه ، كنا مطمئنين إلى ما نراه من أن حذف المؤلف لهذه السطور الثمانية والعشرين إنما كان عدولا منه عن ذلك الرأى البالغ فى الشذوذ حد التناقض مع ما قطع به هو نفسه ، فى ذات الكتاب ، من « أن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى ، وأن نصه ثابت لا سبيل إلى الشك فيه » ...

أما كتابه الثانى - [مستقبل الثقافة فى مصر] - ففعل بعض صفحاته أن تكون أكثر أصوات التغريب علواً وصراحة - بعد كتابات سلامة موسى - ! ..

ففى هذا الكتاب يعلن طه حسين ما سبقه إليه سلامة موسى ، عندما يقول : « إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا - للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول .. » (١) .

(١) [مستقبل الثقافة فى مصر] ج ١ ص ١٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

ويتبنى ما سبقه إليه على عبد الرزق ، فيقول : « إن السياسة شيء والدين شيء آخر .. » (١) .

ويدعو إلى الإلحاق والاتحاق الحضارى بالغرب ، بدعوى وحدة العقل المصرى والشرق مع العقل الغربى ، فكلاهما قد صيغ صياغة يونانية ١٢.. فعنده أن العقل الإسلامى هو - كالعقل الأوربى - مرده إلى عناصر ثلاثة :

— حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن .

— وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه

— والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على

الإحسان .. (٢)

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليونانى للعقل الأوربى .. فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليونانى للعقل الشرقى ، لأن القرآن « إنما جاء متما ومصدقا لما فى الإنجيل » ١٢.. (٣) .

ثم يخلص إلى أن يقول : وهكذا « كانت مصر دائما جزءا من أوروبا ، فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها .. » (٤)

(١) المرجع السابق . ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق . ص ٢١ ، ٢٢ .

(٤) المرجع السابق . ص ٢٦ .

وكما حدث مع كتابه [في الشعر الجاهلي] .. فلقد ووجه هذا الكتاب بحملة كبيرة من النقد والتقص والتفنيد .. وأبرز معارضوه دور الدين واللغة في الوحدة السياسية للدول والقوميات .. وتحذروا عن تميز الإسلام في العلاقة بين السياسة والدين .. وفندوا مزاعمه حول يونانية العقل الشرقى .. ودحضوا افتراءه حول أن القرآن لم يصنع بالعقل الشرقى أكثر مما صنع الإنجيل بالعقل الأوربي .. إلخ .. حدث جميع ذلك في الساحة الفكرية ، دونما مصادرة لرأى أو منع لكتاب ..

وإذا كان طه حسين لم يحذف هذه الصفحات من كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] - كما حذف السطور الثمانية والعشرين من كتابه [في الشعر الجاهلي] - .. فلأنه - في تراجمه عن هذه الآراء - قد صنع أكثر مما صنع في كتابه الأول .. فلقد أحجم عن إعادة طبع هذا الكتاب - [مستقبل الثقافة في مصر] - طوال حياته ، ودون جمع كتبه الأخرى ١٩٠٠ .. وعندما مثل سنة ١٩٧٩ م - عن هذه الآراء التي أثارت الجدل ، والتي تضمنها هذا الكتاب ، أعلن - رغم كبريائه المصنم ١٩٠٠ - : أنها آراء تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل وإصلاح .. فقال عن هذا الكتاب : « ده كُتِب سنة ١٩٣٦ م .. قُدِّم قوى ، عاوز يتجدد .. ويجب أن أعود إليه ، وأصلح فيه بعض حاجات ، وأضيف .. » (١) .

(١) أنظر حديثه هذا في صحيفة [الأهرام] عدد أول مارس سنة ١٩٧٩ م .

وهكذا عاد طه حسين عن اجتهاداته الخاطئة ، التي وضعته في معسكر المتغربين .. لأنه كان صاحب اجتهاد ، أخطأ فيه فتقرب .. فلما أصاب عاد إلى مشارف تيار الإحياء والتجديد .. وهو مأجور في كل الأحوال .. فلم يكن في يوم من الأيام « عميلا فكريا » كما كان الحال مع الذين كرموا الإسلام فسعوا إلى التغريب محاولين زراعته في تربتنا الحضارية على أمل اقتلاع الإسلام ..

● أما الدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] : فلقد كان النموذج الأكثر صدقا وموضوعية وشجاعة في هذه الظاهرة .. ظاهرة العدول عن التغريب ، كاجتهاد خاطيء ، إلى تيار الإحياء والتجديد ، الذي يقدم للأمة فكرها « الطبيعي » والقادر على إثارة طريقها إلى النهضة والانعقاد من هيمنة الحضارة الغربية ..

فلقد تحدث الرجل حديث صدق ، وأعلن في شجاعة عن الملاحظات التي اكتنفت آراءه السابقة المتغربة ، وعن الأسباب الموضوعية للتحويلات الفكرية التي تبني بها الخيار الحضاري الإسلامي .. صنع ذلك ، وهو يحاور أصدقاء الأمس ، الذين أصبحوا ناقدين له وغامزين إياه بعد ما حدث لفكره من تحولات ..

وإذا نحن شئنا أمثلة من هذه التجربة في التحول الفكري من « التغريب » إلى « التجديد » فإننا نقدم شهادة الرجل ، وينفس عباراته ، على التحويلات التي حدثت لفكره في المقولات والقضايا

الأساسية التي كان يطرحها ويشر بها المتغربون ، والتي مازالت مطروحة في ساحة التغريب حتى الآن ١٩ ..

أ - فالرجل قد بدأ حياته متغربا .. وكان موقعه من أحمد لطفي السيد باشا هو موقع التلميذ من الأستاذ .. ولقد مارس النشاط الفكري المبكر كاتبا في « الجريدة » - التي أصدرها ورأس تحريرها لطفي السيد - وهي المنبر الذي كان يشر بالوطنية والقومية ، بمعناها الغربي ، فيرى ضرورة استقلال مصر عن محيطها العربي والإسلامي استقلالاً سياسياً وحضارياً ، على النحو الذي يحررها من الاستعمار الإنجليزي ، ويلحقها في ذات الوقت بالحضارة الغربية ..
بدأ هيكل في هذه المدرسة الفكرية .. فلما حدث له التحول الفكري - وهو في العقد الخامس من عمره - سن التضج الفكري - كتب ناقدا وناقضا للفكرة القومية ، بمعناها ومضمونها الغربي ، ومعلنا انتماؤه إلى مفهوم الأمة الواحدة ، المؤسس على عقيدة التوحيد ، التي هي جوهر دين الإسلام .. كتب يقول :

« إن الفكرة الإسلامية ، المبنية على التوحيد ، تخالف ما يدعو إليه عالما الحاضر من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحدات متنافسة ، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تنافس عليه .



ولقد تأثرنا ، معشر أمم الشرق ، بهذه الفكرة القومية ،
واندفعنا تنفخ فيها روح القوة ، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في
وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا . وخيل إلينا ، في سذاجتنا ،
أنا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا ، وأن نسترد
ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية .

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تتطوى هذه الفكرة القومية
عليه من جرائم فناكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها ،
وزادنا ما خيم علينا من سُجْف الجهل إمعانا في هذا النسيان .

على أن التوحيد ، الذى أضاء بتوره أرواح آبائنا ، قد أورثنا
من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو
الغرب إليه ..

ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى قاريختنا نلتمس فيه مقومات
الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذل ، ولنتقى الخطر الذى دفعت
الفكرة القومية الغرب إليه ، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة
المادية التى جعلها الغرب إلهه ... (١) .

فهو ، هنا ، يحدد أن تبنيه — هو وأمثاله — للنموذج الشرقى
في القومية ، إنما كان اجتهدا خاطئا ، ظنوا أنه السبيل إلى أن نعيد
مجد آبائنا ، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر من

(١) [ل منزل الوحى] ص ٢٢ - ٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

كرامتنا الإنسانية .. ويعلن أن الذى ساعد على الخطأ فى هذا الاجتهاد ، هو « بريق حضارة الغرب » و « السذاجة » التى عليها المتغربون ١٤.. ويقول إن التحول الذى حدث له ، من التغريب إلى التجديد ، إنما أعان عليه تلك « الفطرة » التى رسخها التوحيد الإسلامى فى أرواح أبناء الإسلام .. وأن التماس مشروع إنهاض الأمة من حضارتها وعقيدتها ، إنما هو السبيل إلى الخروج من « الجمود المدل » - الذى عليه تيار التقليد والجمود - واتقاء « الخطر الغربى » - الذى يكرسه المتغربون - ١..

ب - وبالنسبة للعلمانية ، التى تفصل الدين عن الدولة ، والتى بشر بها المتغربون - لأنها قسمة أصيلة فى مشروع النهضة الغربية - .. كان الدكتور هيكل فى سنة ١٩٢٥ م رئيس تحرير صحيفة [السياسة] - لسان حال حزب « الأحرار الدستوريون » - .. ومن موقعه ذلك قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ على عبد الرازق - [الإسلام وأصول الحكم] - ذلك الذى ادعى فيه علمانية الإسلام ، وخلّوه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنفيذ - فهو عنده « رسالة روحية » و « يا بعد ما بين السياسة والدين » .. ونبى الإسلام - كما زعم صاحب هذا الكتاب - لم يؤم دولة ، ولم يرأس حكومة ، ولم يؤسس ملكا ، وإنما كان ، كالحالين من الرسل ، مجرد مبلغ لا علاقة له بالتنفيذ ١..

كان الدكتور هيكل ، فى سنة ١٩٢٥ م ، قائد حملة الدفاع عن

هذه العلمانية .. فلما حدث له التحول الفكرى .. وقدم للناس -
فى سنة ١٩٣٥ م - كتابه [حياة محمد] - نقض فيه مرتكزات
العلمانية من الأساس ، وأوضح تميز الإسلام عن المسيحية ،
واختلاف الإنجاز المحمدى فى السياسة والدولة عن عيسى ، عليه
السلام ، وغيره من الرسل الخالين ، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة
المتميزة لحضارة الإسلام فى هذا الموضوع .. موضوع العلاقة بين
الدين والدولة .. فكتب يقول : « لقد أقام محمد دين الحق ، ووضع
أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادة العالم .

والدين والحضارة اللذان بُلغهما محمد للناس ، بوحي من ربه ،
يتزاوجان ، حتى لا انفصال بينهما .. وقد خلا تاريخ الإسلام من
النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية : أى بين الكنيسة
والدولة ، فأنتج ذلك مما ترك هذا النزاع فى تفكير الغرب وفى اتجاه
تاريخه .. » (١) .

فهو هنا يجعل الحضارة الإسلامية والدين الإسلامى بلاغا إلهيا
إلى الرسول ، ﷺ ، ويؤكد أن النبى ، كما أقام الدين ، فلقد وضع
أساس الحضارة ، وأنهما ، لذلك ، « لا انفصال بينهما » .. كما ينبه
على تميز التاريخ الإسلامى عن تاريخ الغرب فى العلاقة بين الدين
والدولة .. الأمر الذى يجعل من السفاهة الفكرية إستعارة حل
غرى - هو العلمانية - لمشكلة لم يعرفها الشرق - وهى الكهانة

(١) [حياة محمد] ص ٥١٦ ، ٥١٩ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨١ م .

واستبداد الكنيسة بالدولة والسلطة الزمنية ..

ج - ثم يقدم لنا موقفا نقديا متكاملا للمرحلة التي تغرب فكره فيها .. ملايسات هذا التغرب .. وأسباب التحول عنه إلى أحضان حضارة الإسلام .. فيقول : « لقد نُحِيل إلى زمننا ، كما لا يزال يُحِيل إلى أصحابي ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هو سبيلنا إلى النهوض والتقدم .. فحاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية ، لتأخذها جميعا هدى ونبراسا .

ولكنني أدركت ، بعد لأي ، أنني أضع البذر في غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تسمخص عنه ، ولا تبث الحياة ..

وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما تزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله . فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته « البابوية » المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقي الشرق بريئا من الخضوع لهذا التفكير ..

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية للنهوض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟!

لا مفر ، إذا ، من أن نلتصق في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق
قلوبنا وفي أطواء ماضيها هذه الحياة الروحية ، نحى بها ما فتر في
أذهاننا ونجد من قرائعنا وجد من قلوبنا ..

هذا كلام واضح بَيِّن . ومن عجب أن يخفى على أصحابي ،
فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم على !

ولكن ، لا عجب ، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات ، كما
لا يزال خفيا عن كثيرين منهم ! .. » (١) .

هنا ، يقدم الدكتور هيكل وثيقة في الموضوعية الفكرية ، وفي
الشجاعة الفكرية جديرة بأن تكون موضوع دراسة ونموذجا
للاقتداء .. وهي وثيقة ما نظن أنها في حاجة إلى تعليق ..
د - ولا ينسى الرجل أن يحدثنا عن تجربة أخرى له ، توسطت بين
مرحلتى التغريب والتجديد .. فلقد ظن - بعد أن تيقن من استحالة
اتخاذ النموذج الغربي مشروعا لنهضتنا - ظن أن « النموذج الفرعوني » -
القديم - وهو تراث مصري - قد يكون صالحا للبعث ، كمشروع
للنهضة المصرية المنشودة .. فبشر - مع آخرين - بالفرعونية .. ثم
اكتشف أنها ، هي الأخرى وهم من الأوهام ، فلقد غدت تاريخاً
يدرسه المتخصصون ، ومتاجف تعين على الدراسات الحضارية
والتاريخية للقدماء .. على حين قد انطبع حاضر الأمة وعقلها

(١) [في منزل الوحي] ص ٢٢ - ٢٦ .

ووجدانها يطابع جديد ، وصيغا صياغة جديدة ، قوامها مقومات الإسلام .. فكتب الرجل عن هذا المنعرج من منحرجات رحلته الفكرية يقول :

« ... ولقد انقلبث أئمس فى تاريخنا البعيد ، فى عهد الفراعين ، مؤثلا لوحى هذا العصر ، ينشأ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعما ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح يذرا لنهضة جديدة .

وَرَوَّاثُ^(١) فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى نبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وترى ، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين .. »^(٢) .. وهو هنا يتبنى موقف محمد عبده - الذى أشرنا إليه - حول : ان الإسلام هو سبيل الاصلاح .
« - ولذلك .. خلص الدكتور هيكىل ، وهو يتحدث عن هذا التحول الفكرى ، الذى انتقل به من مواقع « تيار التغريب » - عبر دعاة « النزعة الفرعونية » - إلى مواقع تيار « الإحياء والتجديد » .. خلص إلى تقديم مفهوم عميق وموضوعى ومتميز لعلاقة « الأصالة » المعاصرة .. »

فإذا كانت « الأصالة » هى المنابع الحضارية والقسمات الثابتة

(١) رَوَّاثُ فى الأمر مروهة ، وتروثا : نظر فيه وتعقبه ، ولم يصجل فيه .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٢ - ٢٦ .

فيها ، والميزة لها .. فإن « المعاصرة » لا تعنى إضافة الحضارة الغربية المعاصرة إلى أصالتنا ، ليصبح « تاريخنا » الحضارى إسلاميا ، و « واقعنا وحاضرنا » الحضارى غربيا .. وإنما « المعاصرة » - ومعناها : التعامل مع العصر - لابد لها من أن تتميز ذات التميز الذى تميزت به « الأصالة » ، حتى تكون طبيعية ، ومقبولة ، ومتسقة مع الأصالة ، وحتى تحقق للأمة تميزها وتواصلها الحضارى ، فلا تكون أداة للمسح والنسخ والتشويه ، وسيلا للانقطاع الحضارى ، والإلحاق والتبعية لحضارة أخرى ؟ ..



لقد خلص الدكتور هيكمل إلى هذه المعانى لمصطلحات « الأصالة » و « المعاصرة » - وهى التى لا تزال غائبة عن كثيرين ؟ - .. فكتب يقول :

« إن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تُضلَّ السبيل . وإن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها . »

ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا ، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته .. والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب ..

لذلك ، لم ألبث حين تبينت هذا الأمر ، أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية .. فأين هذا من قلق الجمهور أو متابعتة اهتماما لرضاه .. كما يزعم الذين يغمزون !؟ .. (١) .

إنه شاهد صدق .. بل أعظم شواهد الصدق على هذه الظاهرة التي تخلقت في حياتنا الفكرية والثقافية .. ظاهرة تحول أولئك الذين كان تغريبهم اجتهدا خاطئا - عندما اكتشفوا خطأهم - وعندما نضجوا فكريا ، فأدركوا حقيقة الإسلام ، وحضارته ، وحقيقة العروة الوثقى بين عقيدة الأمة وحضارتها وبين أى مشروع للنهضة ، يرجى منه أن يكون سبيلا للتقدم والنهوض والإحياء .. عند ذلك ، حدث لهم هذا التحول العظيم من موقع « التغريب » إلى موقع « الإحياء والتجديد » تاركين في معسكر التغريب أولئك الذين اختاروه واعين وعامدين ومتأمرين .. لأنه ، بالنسبة لهم ، هو البديل للإسلام الذى يكرهون !؟ ..

ونحن نقول إن هذه التحولات قد مثلت « ظاهرة فكرية » ، ولم تقف عند « الحالات الفردية » .. لقد غدت تيارا مؤثرا ، يطلع إليه

(٢) المصدر السابق . ص ٢٢ - ٢٦ .

الجمهور الراغب في التقدم إنطلاقاً من منابع التراث .. وإلى هذه الحقيقة يشير الدكتور طه حسين - في بعض كتاباته - بالفرنسية التي عرض فيها لدراسة هذه الظاهرة .. فيقول : « لقد نشأت فيما بين سنتي ١٩٢٣ و ١٩٤٦ م حركة أدبية كاملة ذات طابع ديني .. » ..

ثم يعرض لإسهامات الدكتور محمد حسين هيكل في هذه الحركة الجديدة - « ذات الطابع الديني » - من مثل كتاباته عن [حياة محمد] و [في منزل الوحي] وكتبه عن « أبو بكر » و « عمر » .. وغيرها .. فيؤكد على أن منهج هيكل هنا قد كان منهج مدرسة وتيار الإحياء والتجديد .. وبعبارة : « .. لقد طبق حسين هيكل في كتابه - [حياة محمد] - منهج جمال الدين ومحمد عيله .. » ..

ويشير إلى جمهور هذا التيار ، عندما يتحدث عن الاستقبال الذي لقيه كتاب [حياة محمد] .. ودلالة هذا الاستقبال ، فيقول : « .. وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً متقطع النظر في العالم العربي كله بين أصحاب الثقافة الرقيقة وعامة الجمهور على حد سواء . وهو ما أثبت أن الشعوب الإسلامية تطمح بحق إلى الحضارة الحديثة ، ولكنها لا ترغب مع ذلك في التخلي عن التراث ! .. » (١) .

(١) [طه حسين في جليله الذي لم يشر سابقاً] - كتابات بالفرنسية ، جمعها وترجمها - عبد الرشيد الصادق عمودي . ص ٦٥ ، ٦٦ - طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

وأخيراً ..

تلك هى الملامح الرئيسية للتيارات الفكرية التى تنازعت ثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامى المعاصر .. والتى كان تنازعها - ولا يزال - مصدر استنزاف طاقات الفرقاء المختلفين فى الصراع الثقافى والفكرى الداخلى ، فلم يستطع طرف الهيمنة وتحقيق السيادة للمشروع الذى يريد .. فكانت النتيجة أن أصبحت قوى الجميع واقفة ومتوقفة عند « السلب » أكثر من « الإيجاب » ، وكأنما الناتج هو « الصفر » من هذا الصراع ١٩ ..

● إن تيار التقليد - الذى يعتبر عقل الأمة « مملوكيا - عثمانيا » - وهو يهيمن على وجدان قطاع عريض من العامة - قد انسحب من « الحاضر » إلى « الماضى » يستفتى « الموتى » فى ما هو جزئى وثانوى من شؤون حياة « الأحياء » .. ويكتفى ، فى الشؤون العامة ، بإطلاق البخور للسلاطين وإسهاماته فى « الدراسات المستقبلية » لا تتعدى التأليف فى « عذاب القبور » ١٩ ..

● وإن تيار التغريب الذى يعتبر عقل الأمة : « يونانيا - غربيا » - وخاصة بعد تعاظم تيار اليقظة والصحوة الإسلامية - يسفر عن وجهه الحقيقى ، مقتربا من خنادق الأعداء ، ساعيا إلى صب حاضِر الأمة ومستقبلها فى مستنقع التبعية للحضارة الغربية - مكررا - فى ضحالة - مقولات التغريب التى سبق

وتراجع عنها أصحابها في العقود الأولى من هذا القرن العشرين !..

● أما تيار الإحياء والجديد - القائل بأن عقل الأمة : عربى إسلامى - والذي يحاصره أهل التقليد وأهل التغريب جميعا - فإنه يحاول صياغة مشروعه الحضارى العربى الإسلامى .. لكن تفرق رموزه ، يجعله عاجزاً ، حتى الآن ، عن إحداث التحولات النوعية التى تغير من السكون والركود السائدين فى هذا الميدان !..

ولعل فى :

١ - انتظام أعلام الإحياء والتجديد فى مؤسسات فكرية ، لها منابرها الثقافية ، ومراكزها البحثية ...

٢ - وفتح قنوات التأثير والتأثر بين « أهل الفكر » - فى تيار الإحياء والتجديد - وبين « أهل الحركة » - فى تيار الصحوة الإسلامية - ..

٣ - وإقامة حوار فكرى منظم ، ومرحلى ، ومخطط له ، بين هذه التيارات الفكرية الثلاثة - أهل التقليد .. وأهل التجديد ..

وأهل التغريب - لعل فى إقامة هذا الحوار ما يؤدى الى اقناع

أهل التقليد - أو الكثيرين منهم - باستحالة صب واقعنا -

الحاضر والمستقبل - فى قوالب الماضى .. وإقناع أهل

التغريب - وخاصة أصحاب الإجتهد الخاطىء منهم -

باستحالة صب حاضرنا ومستقبلنا فى قوالب الحضارة الغربية .

وبضرورة اكتشاف « مساحة الوحدة على الأصول » بين مختلف التيارات ، و « مساحة التعددية في الفروع » ، بين هذه التيارات .. وبضرورة التمييز بين « الثوابت » و « المتغيرات » في تراثنا .. والتمييز في موارث الحضارات الأخرى بين « المشترك الإنساني العام » وبين « الخصوصيات الحضارية » ...

فبذلك ينمو التيار الوسطى – تيار الإحياء والتجديد – .. وتجتمع أغلب طاقات وإمكانات العقل العربى والإسلامى على معالم المشروع الحضارى الذى يفجر الإبداع فى حقل الفكر والثقافة ، فتتجاوز الأمة أزمة ثقافتها العربية والإسلامية ، التى دخلت بها فى المأزق الذى تعيش فيه ..

إن للتقدم الحضارى سنته وأسبابه .. وكذلك الحال مع التخلف والتراجع الحضارى .. وإن للتهضة قوانينها وشروطها .. وإن فى طرح القضية – قضية أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، فى أبعادها المختلفة ، وجوانبها المتعددة .. ومنها مشكلات :

- الموقف من العقل .. وضرورات ، ومعاني تحريره ..
- والموقف من الموروث الفكرى ... والعلاقة بينه وبين الجديد والتجديد
- والموقف من الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة والمعاصرة ..

- وموقف « الأنا : الحضارى » من « الآخر : الحضارى » ..
- وهذا الانقسام القائم فى الفكر المسلم حول مرجعية المشروع الحضارى ، الذى لابد من صياغته كدليل عمل ينير الطريق إلى

النهضة الإسلامية المنشودة ..

إن طرح هذه القضية ، بجوانبها المتعددة وإدارة الحوار حول هذه القضايا والمشكلات ، وحول سبل الحل لها والخروج من مأزقها ، هو إسهام طيب .. وخطوة على طريق تنمية الوعي بالذات الإسلامية .. وتنمية الولاء والانتماء للمشروع الإسلامى .. وتحريك الطاقات الإسلامية على درب الإحياء واليقظة والإصلاح ، لتعود للإسلام ، مرة أخرى ، إمامة الدنيا ، وتمارس أمتها ، بالنسبة لغيرها من الأمم ، دور المرشد الأمين - لعل الله أن يبارك المسعى نحو عودة الشهود الحضارى للإسلام والمسلمين فى هذا العالم من جديد .. وصدق الله العظيم : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ..] (١) .

وعلى الله قصد السبيل .. منه نبتغى العون والسداد والتوفيق ..

(١) البقرة : ١٤٣ .

المصادر ..

● القرآن الكريم .

● كتب السنة :

- [صحيح البخارى] طبعة دار الشعب - القاهرة .
- [صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- [سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- [سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- [سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- [سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- [سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- [مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

● كتب أخرى :

- جارودى (روجيه) : [ماركسية القرن العشرين]
- ترجمة نزيه الحكيم - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- : [الإسلام والإشتراكية] -
- محاضرة - مجلة « الطلبة » -
- القاهرة - يناير سنة ١٩٧٠ م .

سلامة موسى

: [البلاغة العصرية واللغة
العربية] طبعة القاهرة سنة
١٩٤٥ م .

: [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة
١٩٢٧ م .

: [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

: [في الشعر الجاهلي] طبعة
القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

: [طه حسين في جديده الذي لم
ينشر سابقا] ترجمة عبد الرشيد
الصاديق المحمودى . طبعة بيروت
سنة ١٩٩٠ م .

: [الإسلام وأصول الحكم] طبعة
القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

طه حسين (دكتور)

على عبد الرازق (الشيخ)

• [الاجتهاد في نظر الاسلام] -
تعليق - مجلة « رسالة الاسلام »
مايو سنة ١٩٥١ م .

: [الفصحى والعامية والحوار
المسرحى] - بحث - طبعة
الرياض سنة ١٩٩٠ م .

على عقلة عرسان

القرطبي

: [الجامع لأحكام القرآن] طبعة

دار الكتب المصرية - القاهرة .

: [قصة حياتي] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٢ م .

لطفي السيد (أحمد)

: [سعد زغلول : ذكريات

تاريخية] طبعة كتاب اليوم -

القاهرة .

محمد إبراهيم الجزيري

محمد حسين هيكل (دكتور) : [حياة محمد] طبعة القاهرة سنة

١٩٨١ م .

: [في منزل الوحي] طبعة القاهرة

سنة ١٩٦٧ م .

محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] دراسة

وتحقيق دكتور محمد عمارة -

طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

: [جمال الدين الأفغاني المفترى

عليه] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٤ م .

محمد عمارة (دكتور)

: [الجامعة الإسلامية والفكرة

القومية عند مصطفى كامل]

طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

: [معركة الإسلام وأصول

الحكم [طبعة القاهرة سنة

١٩٨٩ م .

: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن

الكريم] طبعة دار الشعب -

القاهرة .

محمد محمد حسين (دكتور) : الاتجاهات الوطنية في الأدب

المعاصر] طبعة القاهرة سنة

١٩٨٠ م .

: [في سبيل البعث - الكتابات

السياسية الكاملة] طبعة بغداد

١٩٨٧ - ١٩٨٨ م .

: [المعجم المفهرس لألفاظ

الحديث النبوي الشريف] طبعة

لندن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .

محمد قزاد عبد الباقي

ميشيل علق

وينسك (أ . ي)

● دوريات :

[الأهرام] سنة ١٩٧١ م .

[رسالة الإسلام] - القاهرة - سنة ١٩٥١ م .

[السياسة] - القاهرة - سنة ١٩٢٥ م .

[الطليعة] - القاهرة - سنة ١٩٧٠ م .

صفحة

تمهيد	٢
١ - العقل .. وتحريره .. ماذا يعنى ؟ .. وماهية التحرير	١٢
٢ - علاقة الجديد والتجديد بالتراث	٢٠
٣ - الهوية الثقافية بين « الأصالة » و « الماصرة »	٢٤
٤ - العلاقة مع الحضارات الأخرى	٣٨
٥ - إنقسام العقل المسلم حول مرجعية المشروع الحضارى	٤٧
١ - تيار التقليد والمحاكاة للموروث	٥٨
٢ - تيار المحاكاة والتقليد للواقف الغربى (التغريب)	٦٢
٣ - تيار الإحياء والتجديد	٧٠
٤ - و .. من التغريب إلى التجديد	٩٠
وأخيرا	١١١
المصادر	١١٥

رقم الابداع : ٩٦٧٥ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-5087-04-X.

الكتاب التالي من هذه السلسلة الكتاب السادس

نحو بديل حضارى إسلامى للتنمية

تأليف: د. صلاح عبدالمتعال

ويدعو هذا الكتاب إلى تبني نموذج حضارى إسلامى بديل
لنماذج التنمية المتنسبة إلى المذاهب المادية الاشتراكية أو
الرأسمالية ، ويسعى هذا النموذج الإسلامى إلى تحقيق حياة
طيبة للمجتمع .

صدر من هذه السلسلة حتى الآن :

- ١ - الكتاب الأول : أزمة الشورى فى المجتمعات العربية
والإسلامية - الشيخ محمد الغزالى .
- ٢ - الكتاب الثانى : الإسلام والقتال - د. أحمد عبدالرحمن
- ٣ - الكتاب الثالث : الإسلام والمرأة - أحمد حسين
- ٤ - الكتاب الرابع : الإسلام والكون - د. محمد جمال الدين الفنى
- ٥ - الكتاب الخامس : أزمة الفكر الإسلامى المعاصر - د. محمد عمارة



هذا الكتاب

إن بؤام الحال من المحال ..
وإذا كان الاجماع قد انمقد على أن ، النهضة ، هي
طوق النجاة للعرب والمسلمين من مخاطر التحديات
الشرسة التي تهدد حاضرهم ومستقبلهم .. سواءً
منها بقايا التخلف الموروث أو الاستلاب الحضارى
الوافد ... فإن هذه ، النهضة ، مستحيلة دون ، دليل
عمل ، يذير لأصحابها الطريق .
• فما هو موقع ، الفكر ، من الأزمة الراهنة ؟
وفي دليل العمل المنشود ؟
• وما هي التيارات الفكرية المعاصرة ...
تلك التي تصنع الأزمة ؟ .. وتلك التي تجاهد
للخروج منها ؟
• للإجابة على هذه الأسئلة ، ولتحديد معالم هذا
الطريق يصدر هذا الكتاب .

دار الشرق الأوسط للنشر

١٥٣ شارع الطيران - مدينة نصر - القاهرة

تليفون ٢٦٠٥٢٠٧

To: www.al-mostafa.com